مقدّمات

في دراسة التوحيد والإيمان

لفضيلة الشيخ

عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر

حفظه الله تعالىٰ

النُّسخة الإلكترونيَّة (١)

من الدرس (١) إلى الدرس (٤)

الشيخ لم يراجع التفريغ

بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس الأول

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام علىٰ إمام المرسلين نبيِّنا محمد وعلىٰ آله وأصحابه أجمعين.

أمَّا بعد..

كان في الأصل أنَّ الدرس حول كتاب «كشف الشُّبهات» ولعلنا نبدأ مع الإخوة مقدِّمة في التوحيد عمومًا إلىٰ أن يأتي الشيخ محمد إن شاء الله ويمضي معكم في دراسة الكتاب.

التَّوحيد لمن أراد دراسته مقدِّمات ينبغي أن يعتني بها، لعلِّي أشير إلىٰ شيء من ذلك بحسب ما يتيسَّر ويسمح به وقتُ هذا اللِّقاء.

ومن ذلك -أيُّها الإخوة- أن يعلم طالب العلم شرف هذا العلم؛ علم التوحيد، علم العقيدة، علم الإيمان، ويقولون: شرف العلم بشرف معلومه.

التَّوحيد البحث فيه كله متعلِّقٌ بالإيمان بوحدانيّة الله جل وعلا؛ بربوبيته، وألوهيته، وأسمائه وصفاته، وما من شكٍّ أنَّ هذا العلم أشرف العلوم؛ لأن البحث فيه في أعظم معلوم.

وسعادة العبد مرتبطةٌ في هذا التوحيد، وكلَّما كان أعظم تحقيقًا له عظُم حظه من السَّعادة بحسب ذلك، ومن فضل الله علىٰ محقِّقي التَّوحيد أنَّهم يدخلون الجنة بدون حساب ولا عقاب.

وفضائل التوحيد علىٰ أهله لا حصر له ولا عد.

ومن هذه الفضائل: أن التوحيد هو الذي يصحِّح الأعمال وتكون به مقبولة عند الله؛ إذ إن كل عمل من الأعمال قلّ أو كثر لا يكون متقبَّلًا إلا إذا قام علىٰ التَّوحيد، لهذا قال الله تعالىٰ: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف]، هذا أساس لابد منه وأصل لابد من وجوده حتىٰ يكون العمل الصالح متقبَّلًا، ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ أي: يوحد الله ويخلص العبادة لله تبارك وتعالىٰ، وفي الآية الأخرىٰ قال تعالىٰ: ﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾﴾[الإسراء]، فالسَّعي لا يكون مشكورًا مقبولًا مُثابًا عليه صاحبه إلا إذا أقيم علىٰ التوحيد، فإذا فُقِد الوحيد كان العمل هباءً؛ قال الله تعالىٰ: ﴿ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ

أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ﴾ [التوبة:٥٤]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾[الزمر]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٥﴾﴾[المائدة]، والآيات في هذا المعنىٰ كثيرة، فالأعمال لا تكون صحيحة ولا مقبولة عند الله ﷻ إلا إذا أُقيمت علىٰ التوحيد، وأُسِّست علىٰ الإخلاص للربِّ المعبود والخالق الجليل ﷻ.

ومن فضائل التوحيد: أنه زبدة دعوة المرسلين وخلاصة رسالتهم، وكلُّ رسولٍ يبعثه الله ﷻ إلىٰ أمَّةٍ من الأمم يدعوهم أول ما يدعوهم إلىٰ توحيد الله وإخلاص النِّيَّة، قال الله تعالىٰ: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل:٣٦]، ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء]، وقال تعالىٰ: ﴿ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾[الزخرف]، وقال تعالىٰ: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾﴾[النحل]، والآيات في هذا المعنىٰ كثيرة، فالتَّوحيد هو زبدة دعوة الرُّسل، ولهذا فإنَّ كل رسول يبعثه الله تبارك وتعالىٰ فإنَّ أول ما يخاطب به قومَه وأوَّل شيء يسمعه قومه منه: **دعوتهم إلىٰ التوحيد**؛ ﴿ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾[الأعراف:٥٩]، هذه أول كلمة تقرع سمْع الأقوام من أنبيائهم عليهم الصلاة والسلام، والأنبياء كلُّهم من أوَّلهم إلىٰ آخرهم قامت دعوتهم علىٰ هذا التَّوحيد؛ توحيد الله في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، جميع الأنبياء قامت دعوتهم علىٰ هذا الأصل المتين والأساس العظيم، ولهذا ثبت في حديث صحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «**نحن الأنبياء أبناء علَّات، ديننا واحد وأمَّهاتنا شتَّىٰ**» وهذا فيه دلالة واضحة علىٰ اتِّفاق دعوة الأنبياء، وأنَّ الكل يدعو إلىٰ شيء واحد، أصل واحد، أساس واحد، وهذا معنىٰ قوله: «**نحن الأنبياء أبناء علات، ديننا واحد**» المقصود بالدين هنا: أي العقيدة والتوحيد، كلنا ندعو إلىٰ التوحيد، إلىٰ إخلاص الدين لله تبارك وتعالىٰ، «**وأمهاتنا شتَّىٰ**» هذا فيه إشارة إلىٰ اختلاف الشرائع بين نبيٍّ وآخر كما قال الله تعالىٰ: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾[المائدة:٤٨]، فالشَّريعة قد تختلف من نبيٍّ إلىٰ آخر، لكن العقيدة واحدة، ولهذا قال العلماء: "العقيدة لا يدخلها النسخ كما يدخل الأحكام"، الأحكام قد يُنسخ حكم ويأتي حكمٌ آخر مكانه، أما

العقيدة فهي واحدة من زمن آدم إلىٰ أن يرث الله الأرض ومن عليها، هي عقيدة واحدة، لا يدخلها نسخ، ولا يدخلها تغيير، إخلاص لله وتوحيد وإيمان بالله وإيمان بما أمر الله بالإيمان به، هذا أمر مُسبَق وثابت ولا يمكن أن يتغير، وجميع الأنبياء دعاةٌ إليه من أولهم إلىٰ آخرهم، وهو معنىٰ الحديث المتقدم «**نحن الأنبيا ء أبناء علات، ديننا واحد**».

أيضًا أمور الإيمان الأخرىٰ؛ لأن الإيمان يشمل التوحيد ويشمل أصول الإيمان الأخرىٰ: الإيمان بالرسل، الإيمان بالكتب، الإيمان باليوم الآخر، وهذه الأصول أيضًا متَّفق عليها بين الأنبياء كلهم، فكل رسولٍ بعثه الله أقام دعوته علىٰ الإيمان بهذه الأصول، الإيمان بالله وهو يتناول أركان الإيمان بالله الثلاثة؛ وهي: الإيمان بالله بربوبيته، الإيمان بالله بألوهيته، إيمان بالله في أسمائه وصفاته، وأيضًا الإيمان بالكتب، والإيمان بالرسل، والإيمان بالملائكة، والإيمان باليوم الآخر، والإيمان بالقدر خيره وشره، هذه أصول ستة متفق عليها بين جميع الأنبياء، ولا خلاف بين نبي وآخر في شيء من ذلك.

ومن يتأمل آيات القرآن الكريم يجد فيها هذا واضحًا في دعوات الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وقد ألّف الشوكاني رَحِمَهُ اللَّهُ رسالة أسماها: «إرشاد الثِّقات إلىٰ اتفاق الشرائع في التوحيد والمعاد والنبوات» وذكر فيها من الدَّلائل والبراهين علىٰ ذلك الشَّيء الكثير، وقد أشرتُ فيما سبق إلىٰ شيء من الأدلة الدالة علىٰ ذلك، هذا مما يبيِّن لنا مقام التوحيد.

ومما يبين فضل التوحيد أنه أول ما يدعىٰ إليه وأول ما يبدأ به؛ لأنه هو الأساس، فكيف يبدأ بغيره؟!، ولهذا لما بعث النبي معاذًا إلىٰ اليمن أمره أن يبدأ بالتوحيد، قال: «**يا معاذ؛ إنك تأتي قومًا أهل كتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أَلَّا إله إلا الله**» وفي بعض الروايات في الصحيح «**فليكن أول ما تدعوهم إليه أن يوحدوا الله**»، فالتوحيد هو أول ما يدعىٰ إليه وأول ما يبدأ به وذلك لأنه الأساس الذي عليه تبنىٰ أمور الإيمان، وعليه تقام الشريعة وجوانبها، قد مرَّ معنا أن أي عمل لا يكون قائمًا علىٰ التوحيد لا يقبله الله ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾[الفرقان]، ففضائل التَّوحيد لا حصْر لها ولا عدّ.

وفضائل تحقيق التَّوحيد أعظم من ذلك، تحقيق التَّوحيد هو أن يتمِّم العبد التوحيد؛ لأن التحقيق هو التثبيت، والمراد بتحقيق التوحيد أن يكون توحيد العبد خالصًا نقيًّا، فمن حقق التوحيد دخل الجنة بدون حساب ولا عقاب دخولًا أوليًّا -نسأل الله عَزَّوَجَلَّ لنا ولكم من فضله-، جاء في حديث ابن عباس

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنَّ النبي عليه الصلاة والسلام قال: «**عُرضت عليَّ الأمم، فرأيت النبي ومعه الرهط، والنبي ومعه الرجل، والنبي ومعه الرجلان، والنبي ليس معه أحد، ثم رُفع لي سواد عظيم فقلت: هذه أمتي، فقال: هذا موسىٰ ومن معه، ثم رأيت سوادًا عظيمًا فقلت: هذه أمتي، فقال: نعم هذه أمتك، وفيهم سبعون ألفًا يدخلون الجنة بدون حساب**»، وقد جاء في بعض الروايات «**أن النبي عليه الصلاة والسلام ازداد ربَّه**» يعني: طلب منه الزِّيادة، وهذا من حرصه ونُصحه لأمته كما قال الله تعالىٰ: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة]، فاستزاد عليه الصلاة والسلام لأمته فجاء في الحديث أن الله عَزَّوَجَلَّ زاده مع كل ألف سبعين ألف، وهذا من فضل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ومنَّته علىٰ أمة محمد عليه الصلاة والسلام، وهؤلاء كلُّهم يدخلون الجنة بدون حساب ولا عقاب، لما ذكر النبي عليه الصلاة والسلام ذلك ومضىٰ خاض الصحابة فيهم، أخذوا يتساءلون من هؤلاء الذين يدخلون الجنة بدون حساب ولا عقاب، من؟ فبعض الصَّحابة قالوا: إنَّ هؤلاء هم الذين صحبوا محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبعضُهم قالوا: هم الذين وُلدوا في الإسلام، وقالوا أقوالًا أخرىٰ؛ لكنك عندما تتأمل أقوالهم تجد أنها كلَّها منصبّة علىٰ طاعة الله وامتثال أمره والقيام بعبادته والمحافظة علىٰ أوامره والثبات علىٰ دينه، فخاضوا فيهم، فدخل عليهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فذكروا له ذلك فقال: «**هم الذين لا يكتوون ولا يسترقون ولا يتطيَّرون وعلىٰ ربهم يتوكلون**» هذه صفاتهم، وهذه الصِّفات تدلُّ علىٰ كمال توحيدهم لله وكمال إيمانهم بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فرجع الأمر إلىٰ تكميل التوحيد و..، «**لا يسترقون ولا يكتوون ولا يتطيَّرون وعلىٰ ربهم يتوكلون**»، وقوله: «**وعلىٰ ربهم يتوكلون**» هو الوصف الجامع لما سبق، فمن تمام توكلهم علىٰ الله وثقتهم به واعتمادهم عليه جانبوا ذلك كله معتمدين علىٰ الله جل وعلا، فلما قال النبي عليه الصلاة والسلام ذلك، قال عُكَّاشة بن محصن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يا رسول الله؛ ادعو الله أن يجعلني منهم، قال: «**أنت منهم**»، وهذه شهادة من النبي عليه الصلاة والسلام لهذا الصحابي الجليل بأنَّه منهم، أي: ممن يدخلون الجنة بدون حساب ولا عقاب، وما أعظمها من بشارة، وما أجلّها من بشارة؛ أن يُبشَّر وهو حيٌّ يرزق يمشي علىٰ وجه الأرض بأنه يوم القيامة يدخل الجنة بدون حساب ولا عقاب، يمشي علىٰ الأرض وهو يحمل هذه البشارة الكريمة من الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوىٰ إن هو وحي يوحىٰ صلوات الله وسلامه عليه، قال: «**أنت منهم**»، فهذه بشارة وأكرِم بها من بشارة.

وقام رجل آخر وقال: يا رسول الله؛ ادع الله أن يجعلني منهم؛ لأن كل من في المجلس يرجو ذلك

لنفسه قال: يا رسول الله؛ ادع الله أن يجعلني منهم، فقال عليه الصلاة والسلام: «**سبقك بها عُكّاشة**»، الشاهد من الحديث فضل تحقيق التوحيد وأنَّ من حقق التوحيد دخل الجنة بدون حساب ولا عقاب.

ومن أدلة تحقيق التوحيد وصفات محقِّقي التوحيد: قول الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [النحل] وهذه صفات لإمام محقِّقي التوحيد إبراهيم الخليل عليه السلام، فتحقيق التوحيد من ثماره العظيمة علىٰ أهله: دخول الجنة بدون حساب ولا عقاب.

وهذا يدلُّنا علىٰ أهمية دراسة التوحيد، والعناية به، وأن يعطيه طالب العلم من وقته، ولا تكون دراسة طالب العلم لعلم التوحيد لمجرَّد المعرفة ومزيد الاطِّلاع، هذا ممَّا لا يليق بالمسلم ولا يليق بطالب العلم، لا يُدْرس التوحيد لمجرد مزيد الاطلاع وتنوع المعارف والتكثّر بالمعلومات، لا، ليس هذا مقصد، وإنما يدرس طالب العلم التوحيد ليكمل توحيده وليزيد إيمانه، ولتقوىٰ صلته بالله تبارك وتعالىٰ، ولتزكو أعماله؛ لأن الأعمال تزكو بزكاء التوحيد وصفائه ونقائه وسلامته، فكلَّما صلُح قلب الإنسان بالتوحيد للرَّب المعبود وإخلاص الدِّين له وعمُر القلب بالإيمان زكت الجوارح تبعًا لذلك؛ لأنَّ الجوارح فرعٌ عما يقوم في القلب، وهذا أمرٌ بيَّنه النبي عليه الصلاة والسلام كما في حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه وفيه قال ﷺ: «**إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب**»، فدراسة التوحيد لأجل هذا؛ أن يُصلِح الإنسان قلبه، وأن يصلح أعماله، وأن تبنىٰ أعمال الإنسان علىٰ توحيد خالص وإيمان صادق وعقيدة صافية مبنية علىٰ أساس عظيم وسبيل قويم: كتاب الله، وسنة نبيه صلوات الله وسلامه عليه.

وتتأكَّد دراسة التوحيد والعناية به في زماننا هذا؛ لغلبة الجهل وكثرة الشبهات ووجود الصوارف المتنوِّعة والصواد الكثيرة عن العقيدة الصافية والتوحيد النقيّ، ما أكثر الشُّبهات التي تُزَخّ في الناس زخًّا، وتُنشر بينهم، وتُلقىٰ عليهم، فتشكك الناس في.. وتوجد عندهم اضطرابًا في هذا الأمر العظيم والأساس القويم الذي لا ينبغي أن يكون فيه أخذ ولا عطاء ولا مساومة ولا تعريض لمخاطرة، والمؤمن أعظم ما يعتني به في حياته: التوحيد؛ لأن أثمن شيء في حياته التوحيد، التوحيد أثمن ما عند الإنسان، أثمن من المال، وأثمن من الطعام وأثمن من الشراب، وأثمن من السَّكن، وأثمن من كل أمر، أعظم نعمة أنعم الله تبارك وتعالىٰ بها علىٰ عبده المسلم: نعمة التوحيد، وهي أعظم من نعمة المال، ومن نعمة الطعام، ومن نعمة الشراب، ومن كل نعمة، ولهذا لو تأملنا في سورة «النحل» التي تُعرف عند أهل العلم بسورة النعم؛

لكثرة ما عدَّد الله تبارك وتعالىٰ فيها من نعم علىٰ عباده، هذه السورة أول ما بدأها الله تبارك وتعالىٰ بدأها بنعمة التوحيد والإخلاص لله تبارك وتعالىٰ، فقال جل وعلا في هذه السورة: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ١ يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ٢﴾[النحل]، فبدأ جل وعلا أول ما بدأ: بنعمة التوحيد، وعدّد بعدها نعمًا كثيرة، ذكر بعد هذه النعمة نعمة الخيل والبغال، وذكر نعمة الفُلك، وذكر نعمة إنزال المطر، وذكر نعمة المساكن والملابس، وذكر نعمًا كثيرة جدًّا؛ ولهذا سميت هذه السورة بسورة النعم؛ لكثرة ما عدد الله تبارك وتعالىٰ من نعمه فيها علىٰ عباده، فإذا قرأت هذه السورة -سورة النعم- أول نعمة تصادفك في هذه السورة نعمة التوحيد، انظر النعمة ﴿يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ٢﴾[النحل] هذه أعظم نعمة وصُدِّرت بها النعم، ولهذا قال بعض السلف: "ما أنعم علىٰ عباده نعمة أعظم من أن عرّفهم أنه لا إله إلا الله"، ما هناك نعمة أعظم من هذه النعمة، وما قيمة ما عند الإنسان من مُتعٍ هذه الحياة وهو يعيش في هذه الحياة ولا يعرف لماذا خُلق ولا لماذا وُجد ولا يعرف ربه ولا معبوده! يمشي يتمتَّع في هذه الحياة كما هو الشأن في بهيمة الأنعام، ولهذا قال الله ﷻ عن الكفار: ﴿إِنۡ هُمۡ إِلَّا كَٱلۡأَنۡعَٰمِۖ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ﴾ [الفرقان]، ما قيمة الحياة إذا كانت بدون توحيد، ما قيمة الحياة إذا كانت بدون لا إله إلا الله، بدون إخلاص الدِّين لله تبارك وتعالىٰ حتىٰ لو أوتي الإنسان من الدنيا مثل ما أوتي قارون، ثم ماذا؟! ولو أوتي من الرئاسات ما أوتي ثم ماذا؟! كل ما يعطاه من الدنيا يفارقه عن قريب أو بعيد ﴿مَتَٰعٞ قَلِيلٞ ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۚ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ١٩٧﴾ [آل عمران]، إذا كان لا توحيد عنده، فما قيمة هذا المتاع الزائل؟!! ولهذا النِّعمة التي لا يعادلها نعمة والمنة التي لا يوازيها منة: المنة بالتوحيد والهداية إلىٰ التوحيد، الهداية إلىٰ الإخلاص، الهداية إلىٰ لا إله إلا الله؛ لأن لا إله إلا الله هي كلمة التوحيد، ولعلكم انتبهتم إلىٰ حديث معاذ بروايتيه، في رواية قال: «**فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة ألا إله إلا الله**» وفي رواية «**أن يوحدوا الله**»، التوحيد هو تحقيق كلمة لا إله إلا الله وهي كلمة التوحيد.

والقرآن كله في التوحيد، يقول ابن القيم رحمه الله: "القرآن كلُّه في التوحيد؛ لأنه إمَّا أمر بالتوحيد وبيان لفضله، أو نهي عن ضدِّ التوحيد وهو الشرك وبيانٌ لخطره وضرره علىٰ أهله، أو بيان لأعمال أهل التوحيد وأوصافهم، أو بيان لأعمال من خالف التوحيد وقبائحهم ومخازيهم، أو بيان ما أعدّه الله تبارك

وتعالىٰ من ثواب عظيم لأهل التوحيد، وما أعدّه من عقاب أليم لمخالفي التوحيد".

فالقرآن من أوله إلىٰ آخره كله توحيد، كل سورة فيه، كل آية فيه كلها في تفصيل التوحيد والإخلاص لله تبارك وتعالىٰ.

وعليه فإن الواجب علىٰ المسلم أن يستشعر نعمة الله عليه بالهداية إلىٰ التوحيد، وهي منَّة من الله، وهداية منه جل وعلا، قال الله تبارك وتعالىٰ: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم ۖ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الحجرات]، ويقول تعالىٰ: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴿٢٧﴾﴾ [إبراهيم]، فهذا يدلُّنا أن الهداية إلىٰ التوحيد منة الله علىٰ عبده، قال تعالىٰ: ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ﴾ [الحجرات]، فهو فضلُ الله ونعمته، قال تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾ [الحديد] فهو فضلُ الله تعالىٰ، قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ ۗ﴾ [النور:٢١]، والآيات في هذا المعنىٰ كثيرة، فمن منَّ الله عليه بالتوحيد فليعرف نعمة الله عليه، وليرعىٰ لهذه النعمة حقها، وليعرف لها قدْرها، وليحمد المنعم جل وعلا عليها، الله يقول: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾﴾ [إبراهيم]، وإذا استشعر المسلم قيمة التَّوحيد ومكانته، فإن عنايته به تعظم، واهتمامه به يزيد، ودراسته له تزيد، ومحافظته عليه تزيد، هذا كله فرعٌ عن استشعار قيمة هذا الأمر ومكانته، ولا سيما -كما أشرتُ سابقًا- ما وُجد وتزايد في زماننا من شبهات وفتن وصوارف، وقد أشار النبي عليه الصلاة والسلام إلىٰ ذلك، قال: «**إنه من يعش منكم فسيرىٰ اختلافًا كبيرًا**»، قال: «**وستفترق هذه الأمة إلىٰ ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة**»، فالمسلم يرعىٰ للتوحيد حقَّ رعايته، ويحافظ عليه تمام المحافظة، ويعتني به تمام العناية، ويبتعد عن كلِّ أمرٍ يُخلُّ بالتوحيد و ينقص شأنه أو يقلِّل قدره ومكانته.

والتَّوحيد ثوبٌ نقيٌّ لا يقبل أن يدنِّسه شيء، «**اللَّهُمَّ نقِّني من الذنوب والخطايا كما نقَّيت الثوب الأبيض من الدنس**»، الآن أنت إذا كان عندك ثوب أبيض جديد لتوِّك اشتريته وفرِح به غاية الفرح وحصلت عليه بكلفة ومشقة وحُزت ثوبًا جديدًا، ومشيت بهذا الثوب الجديد في الطريق، وفي الطريق وحَل وطين وأوساخ كيف عنايتك بهذا الثوب وكيف اهتمامك به وكيف رعايتك له؟ عنايتك بالتوحيد

ينبغي أن تكون أعظم من هذا، واهتمامك بالتوحيد ينبغي أن يكون أعظم من هذا، وأن تحرص ألا يخدش توحيدك أي شيء.

وقد جاء في الحديث القدسي أن الله يقول: «**أنا أغنىٰ الشركاء عن الشرك**» لاحظ التوحيد ما يقبل أي مدنس «**أنا أغنىٰ الشركاء عن الشرك، من عمل عملًا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه**» هذا يبين لك أن التوحيد لا بد من المحافظة علىٰ صفائه ونقائه وسلامته.

ومن المصائب أن مخالفي التوحيد والمنحرفين عنه يثيرون الشبهات ليشوِّشوا علىٰ أهل التوحيد، وسيكون لكم مدارسة في كتاب قيم في هذا الباب وهو «كشف الشبهات» لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهذا الكتاب تكون دارسته مرحلته بعد دراسة «الأصول الثلاثة» ودراسة «كتاب التوحيد» حتىٰ يكون تأصيل وتقرير ومن ثَم رد لبعض الشبهات التي يثيرها دعاة الباطل وأهل الضلال.

الكلام في هذا الموضوع طويل ولعل هذه المقدمة فيها كفاية إن شاء الله، وأسأل الله عَزَّوَجَلَّ بأسمائه الحسنىٰ وصفاته العلىٰ وبأنه الله الذي لا إله إلا هو أن يرزقني وإياكم توحيدًا خالصًا وإيمانًا صادقًا، وأن يُصلح لي ولكم ديننا الذي هو عصمة أمرنا، وأن يُصلح لنا دنيانا التي فيه معاشنا وأن يصلح لنا آخرتنا التي فيها معادنا وأن يجعل الحياة زيادةً لنا في كل خير والموت راحة لنا من كل شر، والله تعالىٰ أعلم وصلىٰ الله وسلم علىٰ نبينا محمد وآله وأصحابه أجمعين.

بسم الله الرحمن الرحيم
الدرس الثاني

إنَّ الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد ألَّا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمدًا عبده ورسوله، صلَّىٰ الله عليه وعلىٰ آله وأصحابه أجمعين وسلَّم تسليمًا كثيرًا.

أمَّا بعد..

ففي مثل هذا الوقت من الليلة البارحة جرىٰ ذِكر بعض المقدِّمات المهمة في التوحيد، ونواصل الحديث في الموضوع ذاته مستعينين بالله تبارك وتعالىٰ، وستكون هذه المذاكرة حول الإيمان:

جاء في الحديث الصحيح أن سفيان بن عبد الله الثَّقفي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سأل النبيَّ ﷺ أن يعلِّمه قولًا جامعًا لا يسأل عنه أحدًا غيره، فقال له عليه الصلاة والسلام: «**قل: آمنت بالله، ثم استقم**»، هذا الحديث عدّه أهل العلم من جوامع كلِم النبي الكريم عليه الصلاة والسلام، ذلك أنَّ مَن سأل النبيَّ عليه الصلاة والسلام طلب قولًا جامعًا لا يحتاج بعده إلىٰ سؤال أحد آخر، فقال عليه الصلاة والسلام: «**قل: آمنتُ بالله، ثم استقم**»، فدلّ ذلك علىٰ أن هذين الأمرين: الإيمان بالله والاستقامة علىٰ دين الله جمَعا الخير كلَّه وأحاطا به؛ ولأجل هذا جعله النبيُّ جوابًا لهذا السائل «**قل: آمنتُ بالله، ثم استقم**».

فما المراد بقوله عليه الصلاة والسلام «**قل: آمنت بالله**»؟ وما المراد بقوله: «**ثم استقم**»؟

وأهل العلم يقولون: إن القول إذا أُطلق كما في هذا الحديث، وكما في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ [فصلت٣٠، والأحقاف:١٣]، كما في قوله تبارك وتعالىٰ: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ [البقرة:١٣٦]، ونظائر ذلك مما جاء في القرآن أو السنة يشمل قول القلب وقول اللسان، فالمراد بقوله: «**قل: آمنتُ بالله**» أي: قل ذلك بلسانك معتقدًا -أيضًا- ذلك بقلبِك، فهو قول بالقلب اعتقادًا وإيمانًا وإذْعانًا، وقولٌ باللِّسان تلفظًا بتوحيدِ الله تبارك وتعالىٰ والإيمانِ به، ثم التزامٌ بعد ذلك بهذا الإيمان، وتقيّدٌ به وامتثالٌ لما يدعو إليه «**قل: آمنت بالله، ثم استقم**».

وعندما تتأمَّل هذه الكلمة «**آمنتُ بالله**» هذه كلمة عربيَّة، واضحة المعنىٰ، معروفة الدلالة، والعرب يعرفون المراد بهذه الكلمة، كما أنهم يعرفون المراد بكلمة الصَّلاة من حيث اللغة، كلمة الحج من حيث اللغة، وكلمة الصِّيام من حيث اللغة، كلُّ هذه الكلمات مفهومة المعنىٰ من حيث اللغة، لكن الشريعة

جاءت وقيّدت هذه الدلالات اللغوية وخصَّتها بمعاني شرعية، لا سبيل إلىٰ إدراكها ولا مجال إلىٰ العلم بها إلا من خلال الشارع الحكيم، فالذي يريد معرفة الإيمان لا يمكن أن يعرفه من مجرَّد اللغة، وكذلك الذي يريد أن يعرف الصلاة التي أُمرنا بها لا يُمكن أن يعرفها من مجرَّد اللغة،

الصلاة لغة: الدعاء، فهل الصَّلاة الشرعية هي مجرد الدعاء؟ أم أنها أفعالٌ مخصوصة في أوقات مخصوصة بصفات مخصوصة بشروط مخصوصة!

الحج لغة القصد، فهل يكفي معرفة الحج بمعرفة دلالة الكلمة من حيث اللغة؟!

الصيام في اللغة: الإمساك، هل يكفي في معرفة الصيام معرفة هذه اللفظة من حيث اللغة؟!

الجواب: واضح، أن الدلالة اللغوية وحدها ليست كافية في معرفة المطلوب الشرعي والمقصود الديني بهذه الألفاظ، وهكذا الشأن بالنسبة للإيمان.

والألفاظ علىٰ ثلاثة أقسام:

قسم لا سبيل إلىٰ معرفته إلا من جهة الشرع، وهي الألفاظ الشرعية والعبادات المأمورِ بها، فهذه لا يمكن أن تُعرَف ولا سبيل إلىٰ معرفة حدودها وضوابطها وأركانها وشروطها إلا من خلال الشرع.

وهناك ألفاظ تُعرَف باللغة؛ كالشمس، القمر، الشهر، اليوم، الكذا، هذه أمور تعرف معناها والمراد بها والمقصود بها باللغة.

وهناك أمور لا تُعرَف إلا بالعرف، ألفاظ السبيل إلىٰ معرفتها بالعرف، وهذه أيضا لها أمثلة.

لكن كلامنا في النوع الأول، وهو الألفاظ الشرعية: الإيمان، الصلاة، الصيام، الحج وغير ذلك من الألفاظ التي جاءت في الشرع، هذه ألفاظ شرعية العلم بها لا سبيل إليه ولا مجال إلىٰ تحصيله إلا من خلال الشَّارع.

ومن هنا أريد أن أدخل معكم في حديث وفد عبد القيس؛ لأننا نحن الآن في دراسة حول الإيمان ومذاكرة حول الإيمان.

حديث وفد عبد القيس، وهو من الأحاديث المهمة جدًّا في دراسة الإيمان ومعرفته، وهو مُخرَّج في «الصحيحين» وغيرهما، وفد عبد القيس وفد جاءوا إلىٰ النبي عليه الصلاة والسلام لتعلُّم الدِّين، قالوا: (يا رسول الله؛ أتيناك في شهر حرام وبيننا وبينك هذا الحي من كفار مضر). اختاروا المجيء إلىٰ النبي عليه الصلاة والسلام في شهر حرام؛ لأن عادة الناس في ذلك الوقت التوقف عن القتال؛ تعظيمًا للشهر،

فقالوا: (أتيناك في شهر حرام وبيننا وبينك هذا الحي من كفار مضر) يعني ما نستطيع نأتي إليك إتيانًا أو مجيئًا متكررًا كلَّما رغبنا في المجيء، (**فأتيناك في شهر حرام وبيننا وبينك هذا الحي من كفار مضر؛ فمُرنا بقول فصل نخبر به مَن وراءَنا وندخل به الجنة**)، وهنا ينبغي أن تقف أنت طالب العلم علىٰ مقصود السؤال، لماذا تطرح السؤال لماذا تسأل؟

والأسئلة للناس فيها مناحٍ شتىٰ ومقاصد مختلفة، ولا خير في سؤال إلا سؤال يرجو صاحبه به نفعَ نفسه ونفع غيره، أما الأسئلة التي ليس من ورائها فائدة أو من ورائها شر وضرر هذه لا خير فيها، ولا يؤجر الإنسان علىٰ طرحها؛ بل قد يأثم، فلاحظ هؤلاء ماذا يريدون بهذا السؤال، وماذا يريدون بهذه المكابدة والمشقة وتحيُّن هذه الفرصة للمجيء، قالوا: (مرنا بقول فصل) ماذا يصنعون به؟ (نخبر به من وراءنا وندخل به الجنة)، هذا المقصود (نخبر به من وراءنا وندخل به الجنة).

وبهذا تفهم قول الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ عندما قال: "**العلم لا يعدله شيء إذا صلحت النية، قيل: وما صلاحها؟ قال: أن تنوي به رفع الجهل عن نفسك وعن غيرك**"، هذان المقصدان اجتمعا في هؤلاء السائلين (قول فصل نخبر به من وراءنا وندخل به الجنة) يعني ننتفع به نحن؛ فنعرف ما يُراد منا وماذا نؤمر به من أجل أن نعمل وندخل الجنة، هذه الهمة التي وراء هذا السؤال، وأمر آخر (نخبر به من وراءنا) يعني نخبر من لم يأت من عشيرتنا نبلغهم هذا الخير، والله يقول: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾[العصر]، وهو لا يريد به أن يعمل الصالحات فيدخل الجنة ولا يريد أيضًا أن ينصح به إخوانه وقومه وأهل بيته وعشيرته، فما هي المنفعة التي يرجوها منه، وما الفائدة التي يحصِّلها منه؟ ولهذا تصحيح النية في طلب العلم مهم.

والنبي ﷺ يقول: «إنَّما الأعمال بالنيات، وإنَّما لكل امرئ ما نوىٰ».

فما أجمل هذا السؤال، وما أروع هذا المقصد (مرنا بقول فصل نخبر به من ورائنا وندخل به الجنة)، وليتنا نتحلىٰ بهذا الوصف الكريم وبهذا النعت الجميل في طلبنا للعلم، في سؤالنا لأهل العلم، في بحثنا في مسائل العلم، في قراءتنا لكتب أهل العلم، ليتنا نستصحب هذه النية المباركة والمقصد العظيم.

ماذا قال لهم عليه الصلاة والسلام؟ قال: «**آمركم بالإيمان بالله، أتدرون ما الإيمان بالله؟**» هؤلاء المخاطَبون الآن بقوله عليه الصلاة والسلام: «**أتدرون ما الإيمان بالله؟**» هؤلاء أليسوا عربا؟ أليسوا من أهل اللسان؟ أليسوا يعرفون مدلولات الألفاظ اللُّغوية؟ أليسوا يعرفون معنىٰ الإيمان لغة وإلا لا؟ قال

لهم: «**آمركم بالإيمان بالله، أتدرون ما الإيمان بالله؟**» وهم أهل لغة، هنا أريد أن تنتبه إلىٰ فائدة عظيمة جدًّا في هذا الحديث: ما حاجة قول النبي ﷺ لهؤلاء «**أتدرون ما الإيمان بالله؟**» إذا كانت اللغة وحدها كافية في معرفة الإيمان؟ هم أهل اللسان، يعرفون معنىٰ الإيمان لغة، معروف عندهم، ومن يعرف اللغة الأمر الواضح في اللغة لا يُسأل عنه، فقال: «**أتدرون ما الإيمان بالله؟**» قالوا: (وما الإيمان بالله؟) ماذا تستفيد الآن أنت من هذا السؤال: قالوا: (وما الإيمان بالله؟) وهم أهل لسان وأهل لغة، ويعرفون معنىٰ الإيمان لغة، قالوا: (وما الإيمان بالله؟) أنت تستفيد من هذا فائدة عظيمة ومهمة جدًّا وهي أن الإيمان حقيقة شرعية لا سبيل إلىٰ العلم بها إلا من خلال من؟ إلا من خلال الشارع، فالشارع هو الذي يحدد لك معنىٰ الإيمان بالله، وإلا لو كان يكفي في معرفة الإيمان شرعًا معرفته في اللغة لَمَا احتاج النبي ﷺ أن يسأل هؤلاء، ولَمَا احتاجوا هم أن يجيبوا بهذا الجواب: (وما الإيمان بالله؟)، واضح؟

«قالوا: وما الإيمان بالله؟» فعرفنا من هذا أن الإيمان حقيقة شرعية السبيل إلىٰ العلم بها الشارع، انظر هذا في قوله تعالىٰ في آخر الشُّورىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٢﴾[الشورىٰ]، فالسبيل إلىٰ معرفة الإيمان وتفاصيله وحدوده وشرائع الإيمان هو الشارع الحكيم، وأنت تعلم ذلك وتفهمه جيدًا تعجب غاية العجب من فئةٍ من المخالفين لأهل السنة والجماعة في باب الإيمان عندما يعرِّفون الإيمان، يقولون: الإيمان لغة: التصديق، إذن شرعا: التصديق، فالإيمان المطلوب منا شرعًا هو التصديق فقط، فالمصدِّق مؤمن، يا سبحان الله! هؤلاء هل فهموا هذا الحديث المخرَّج في «الصحيحين»، حديث النبي ﷺ وهو يخاطب هذا الوفد المبارك الذي جاء لمقصدٍ جليل وغاية نبيلة، هل عرفوا هذا الحديث؟ علىٰ أن كثير من هؤلاء -وهذا من المؤسف- يتحدثون عن الإيمان ويتحدثون عن كثير من الحقائق الشرعية بمعزل عن النُّصوص، وببُعد عن الكتاب والسنة وإنما يتكلمون بعقل مجرد أو بحدود اللغة أو بأقيسة عقلية أو بنحو ذلك ومن هنا ينشأ الضَّلال، فقارِن بين مسلك هؤلاء وبين المسلك المبارك من هذا الوفد المبارك الذي جاء إلىٰ النبي ﷺ وطلب قولًا فصلًا فقال لهم عليه الصلاة والسلام: «**آمركم بالإيمان بالله، أتدرون ما الإيمان بالله؟**».

وهنا أيضًا فيه حُسن تعليم وكمال توجيه وشدّ للأذهان، لاحظ النبي عليه الصلاة والسلام لما أراد أن يعلم الوفد شدهم وشد أذهانهم وانتباههم «**أتدرون ما الإيمان بالله؟**» حتىٰ تتهيأ الأذهان وتستعد الفهوم

لأخذ المعلومة تامة وافية، فلم يعطهم الجواب مباشرة ما قال: آمركم بالإيمان بالله، والإيمان بالله هو كذا وكذا، وإنما استعمل معهم هذه الطريقة، وهي كثيرًا ما تأتي في السنة وهذا من تمام النُّصح وحُسن البيان.

قالوا: (وما الإيمان بالله؟) قال: «**أن تشهدوا ألا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وتقيموا الصلاة، وتؤتوا الزكاة، وتصوموا رمضان، وتعطوا الخُمُس من المَغنم**» هنا لاحظ ماذا ذكر عليه الصلاة والسلام في تعريف الإيمان؟، تأمل ما ذكر في تعريف الإيمان: الشهادتين، الصلاة، الصيام، هذه كلها من ماذا؟ من الأعمال الظاهرة، إذن العمل الظاهر داخل في الإيمان، وجزء من مسمَّاه، ولما عرّف عليه الصلاة والسلام الإيمان عرّفه بالعمل الظاهر، فالعمل الظاهر جزء من مسمَّىٰ الإيمان داخلٌ في مسماه، هذا الحديث يدلُّ علىٰ دخول العمل الظاهر في مسمَّىٰ الإيمان.

انظر إلىٰ الحديث المشهور بحديث جبريل لما سأل النبي عليه الصلاة والسلام فقال له: «أخبرني عن الإيمان»، قال عليه الصلاة والسلام: «**الإيمان: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وأن تؤمن بالقدر خيره وشره**»، فذكر هذه الأصول الستة، وكلها اعتقادات باطنة في القلب، الإيمان بالله، والإيمان بالكتب والإيمان بالرسل والإيمان بالملائكة والإيمان باليوم الآخر والإيمان بالقدر كلها عقائد قلبية، وحديث وفد عبد القيس فسّر فيه النبي عليه الصلاة والسلام الإيمان بماذا؟ بالعمل الظاهر.

فدل مجموع الحديثين: أن الإيمان يتناول الاعتقادات الباطنة والأعمال الظاهرة، كلها داخلة في مسمىٰ الإيمان، الإيمان بالله والملائكة والكتب والرسل واليوم الآخر والقدر خيره وشره هذه من الإيمان؛ بل هي أصول الإيمان وأسسه التي عليها يقوم، والشهادتان والصلاة والصيام والحج والصدقة وغير ذلك هذه كلها من أعمال الإيمان وهي داخلة في مسماه، والدلائل في الكتاب والسنة علىٰ دخول العمل في مسمىٰ الإيمان لا حصر لها، كثيرة جدًّا، اقرأ قول الله تعالىٰ: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝١﴾ [المؤمنون]، ثم ذكر أعمالهم من صلاة وزكاة وحفظ للفروج وغير ذلك من الأعمال هذه كلها من أعمال الإيمان، واقرأ قول الله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗا﴾ [الأنفال]، فالصلاة والزكاة والتوكل وتلاوة القرآن وذكر الله جل وعلا كل هذا إيمان، كل هذا داخل في مسمىٰ الإيمان، والإيمان يتناول هذا كله، يتناول الأعمال الظاهرة ويتناول العقائد

الباطنة.

وانظر أيضًا حديث الشُّعَب حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو في «الصحيحين»، قال عليه الصلاة والسلام: «**الإيمان بضعٌ وسبعون شعبة، أعلاها: قول: لا إله إلا الله، وأدناها: إماطة الأذىٰ عن الطريق، والحياء شعبة من شعب الإيمان**» وهذا الحديث من أوضح ما يكون في الدلالة علىٰ أن الإيمان يتناول ما يكون بالقلب وما يكون باللسان وما يكون بالجوارح، فالإيمان منه ما يكون بالقلب ومنه ما يكون باللسان ومنه ما يكون بالجوارح، وقد تناول هذا الحديث هذا كله، فقوله عليه الصلاة والسلام: «**أعلاها: قول: لا إله إلا الله**» هذا فيه ماذا؟ مرّ معنا قاعدة –لعلكم ما نسيتموها–: القول إذا أطلق يتناول قول القلب وقول اللسان، قول القلب اعتقادًا وقول اللسان نطقًا وتلفظًا، فهنا يشمل العقيدة التي تقوم في القلب، ويشمل التلفظ بالشهادتين الذي يكون باللسان، فكل ذلك إيمان، وقوله عليه الصلاة والسلام: «**وأدناها: إماطة الأذىٰ عن الطريق**» هذه عمل الجوارح، فعمل الجوارح من الإيمان وداخل في مسماه، وقوله: «**والحياء شعبة من شعب الإيمان**» دليل علىٰ أن عمل القلب ومنه الحياء داخلٌ في مسمَّىٰ الإيمان، فالحياء إيمان، الرجاء رجاء الله إيمان، التوكل علىٰ الله إيمان، خوف الله إيمان، خشية الله إيمان، كل هذه أعمال قلبية، وهي من الإيمان، يزيد الإيمان بزيادتها وينقُص بنقصها، والأعمال الظاهرة التي جاءت في الكتاب والسنة إيمان، يزيد الإيمان بزيادتها وينقص بنقصها، فهذا يدلُّ علىٰ أن الإيمان يتناول العقيدة الباطنة ويتناول الأعمال الظاهرة، ويتناول أيضًا ما يكون باللِّسان، فذكر الله إيمان، التَّسبيح إيمان، التهليل إيمان، قراءة القرآن إيمان، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إيمان، النصيحة لعباد الله إيمان، فهذا كله من الإيمان، فهذا توضيح للإيمان والمراد به.

أيضًا من الأحاديث التي توضح معنىٰ الإيمان: الحديث الذي في الصحيحين حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي قال: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو ومؤمن، ولا ينتهب نهبة يرفع الناس إليه فيها أبصارهم وهو مؤمن**» فهذا أيضًا مما يوضح لنا الإيمان.

الإيمان يتناول العقيدة الباطنة، يتناول الأعمال الظاهرة، يتناول الأقوال الطيبة التي تكون باللسان، ويتناول أيضًا ترك ما حرم الله، فالترك إيمان، بُعد الإنسان عن الزنىٰ هذا إيمان، بُعده عن السرقة هذا إيمان، بُعده عن شرب الخمر هذا إيمان، بُعده عن الكذب هذا إيمان، بُعده عن الغش والخيانة هذا

إيمان، بُعده عن المحرمات إيمان، داخل في مسمىٰ الإيمان، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو ومؤمن**»، وهنا فيه نفي للإيمان في حق من زنىٰ أو سرَق أو شرب الخمر، وليس المراد بالإيمان المنفي هنا أصل الإيمان، ولا كذلك المراد بالإيمان المنفي هنا كمال الإيمان المستحب، وإنما المنفي كمال الإيمان الواجب، يعني: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن**» الإيمان الواجب عليه، «**ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن**» الإيمان الواجب عليه، لأن الواجب علىٰ المسلم أن يبتعد عن الزنىٰ، يبتعد عن السرقة، يبتعد عن شرب الخمر، فإذا وقع في شيء من ذلك نقص من كمال إيمانه الواجب بحسب ما ارتكب من هذه الموبقات وبحسب ما فعل من هذه المحرمات.

إذن حديث أبي هريرة هذا يدلُّ علىٰ أن ترك المحرمات ماذا؟ إيمان، ولهذا عِفّة المؤمن عن الحرام وبعده عن الفواحش وتركه للمحرمات هو من الإيمان الذي يثيبه الله تبارك وتعالىٰ عليه يوم القيامة ويجزيه عليه أعظم الجزاء، ولهذا في سورة المؤمنون قال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣﴾ إلىٰ أن قال: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦﴾، إلىٰ أن قال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ﴾، فلاحظ ترتُّب دخول الفردوس وترتُّب الثواب علىٰ مجموع أعمال الإيمان ومنها البعد عن المحرمات واجتنابها وتركها، فهذا كله يتناوله الإيمان ويدخل في مسماه، ولا يعقل حقيقة الإيمان ومعنىٰ الإيمان مَن أخذ يتحدَّث عن الإيمان ببُعد عن هذه النصوص، من يتحدث عن الإيمان وهو بعيد عن هذه النصوص ما يمكن أن يعرف الإيمان، ووالله لتعجب عندما تفتح بعض الكتب وهي مؤلفة ومكتوب عليها العقيدة الإسلامية ويتكلمون عن الإيمان ولا يذكرون آيات من القرآن ولا أحاديث عن النبي عليه الصلاة والسلام، ويشرح الإيمان شرحًا مبينًّا علىٰ اللغة أو مبنيا علىٰ أقيسة عقلية وكأن النبي عليه الصلاة والسلام ما شرح للأمة الإيمان ولا بيّنه لها ولا وضّحه ولا جاءت عنه أحاديث في بيان الإيمان وتوضيحه، أين هؤلاء الذين يشرحون الإيمان عن حديث شُعَب الإيمان؟ أين هم عن حديث وفد عبد القيس؟ أين هم عن حديث جبريل؟ أين هم عن حديث أبي هريرة؟ أين هم عن الأحاديث المتكاثرة في سنة النبي عليه الصلاة والسلام التي تشرح الإيمان؟ أين هم عن كلام الله ﷻ في القرآن الكريم؟ أيليق بمن يكتُب عقيدة إسلامية أو يدّعي أنها عقيدة إسلامية ويشرح الإيمان ولا

يذكر آية من القرآن؟! ولا يذكر حديثًا عن النبي عليه الصلاة والسلام؟! ويبدأ يتكلم في حدود اللغة ويتكلم في حدود الأقيسة العقلية، وبما أنه كذا إذن يكون كذا، ولو كان كذا إذن لكان كذا، ويدخل في مقدمات ونتائج وأمور من هذا القبيل يشرح بها الإيمان بلا آية وبلا حديث! فيا سبحان الله! ووالله إنك لتعجب غاية العجب من حال هؤلاء، وكثير من هؤلاء لمّا ابتلي بهذه الطريقة أصبح في غربة وفي بُعد عن النصوص ولم يعد يعرف شيئًا منها، حتىٰ قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ في ذمِّه وكلامه علىٰ المنطقيين، قال: "أصبح بعضهم ما يميز بين أحاديث النبي وقصص عنترة!!" تختلط عليه، قال: "حتىٰ إني رأيت بعضهم يقول: قال الله تعالىٰ ويذكر حديثًا عن النبي عليه الصلاة والسلام، ويقول: كما جاء في الحديث ويذكر آية في القرآن الكريم!" فهل هؤلاء الذين هم بهذا المستوىٰ هل يُحسنون شرح الإيمان، ويحسنون بيان الإيمان، ويحسنون توضيح الإيمان؟! لا آيات تتلىٰ من كتاب الله ولا أحاديث تُقرأ من كلام رسول الله؟! ولهذا شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ لما كتب كتابه الكبير الذي سماه «الإيمان» أول ما بدأ في مقدمة الكتاب ذكر وجود الخلاف ووجود المذاهب ووجود الآراء والأفكار التي تتحدث عن الإيمان، وقال: "إن هذه الخلافات كلها بسبب الدخول في المصطلحات والدخول في هذه الآراء، والبعد عن الأدلة" ثم قال: " وأنا أبيّن بعون الله تبارك وتعالىٰ الإيمان من خلال كلام الله وكلام رسوله عليه الصلاة والسلام" وجاء بالآيات والأحاديث وأخذ يبين الإيمان من خلالها، فأصبحت ماذا؟ الآيات هي الحاكمة والأحاديث هي الحاكمة وهي المبيّنة وهي الشارحة، فبهذا يُعرف الإيمان المعرفة الصحيحة.

ولهذا قصدت بهذا الكلام نصيحة لإخواني: الذي يريد الإيمان يفعل مثل طريقة وفد عبد القيس، يحفظ الأحاديث ويحفظ كلام النبي عليه الصلاة والسلام ويعمل بتطبيقه ليدخل به الجنة ويبلِّغ به إخوانه، يبلغهم بحديث وفد عبد القيس، ويبلغهم بحديث جبريل، ويبلغهم بحديث الشُّعب والأحاديث الأخرىٰ التي توضح الإيمان وتشرحه، هذه هي طريقة السلف وكانوا رحمهم الله يكتبون كتب في الإيمان كلها آيات وأحاديث، اقرأ «الإيمان» لابن أبي شيبة، «الإيمان» لأبي عبيد، «الإيمان» لابن منده، كتب كثيرة ما فيها إلا آيات وأحاديث، والمتأخرين من علماء السلف احتاجوا إلىٰ بعض الكلام وبعض البيان للرد علىٰ من خالف هذه الآيات وهذه الأحاديث، وإلا الأحاديث والآيات كافية وافية شافية في معرفة الإيمان الذي أُمرنا به، وطُلب منا القيام به.

لعلكم انتبهتم في الشرح إلىٰ هذا التسلسل: حديث سفيان «**قل: آمنت بالله، ثم استقم**» تريد تشرح الحديث إن وقفت عند اللغة وحدها لن تصل إلىٰ معرفة الإيمان، الآن خذ هذا الحديث «**قل: آمنت بالله، ثم استقم**» واشرح لي هذا الحديث في حدود اللغة، ما الإيمان وما الاستقامة؟ وأسألك هل تفوز بالموعود الكريم لمن حقق مقصود الحديث الذي دلّ عليه قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ١٣﴾ [الأحقاف]، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ﴾ [فصلت:٣٠]، هل يفوز بهذه البشارات وبهذا الموعود الكريم مَن يعرِّف الإيمان في حدود اللغة فقط، هل يفوز بهذا الموعود؟! أبدًا، لابد من الرجوع إلىٰ الكتاب والسنة وإعمال الأدلة لفهم ماذا؟ لفهم الإيمان، فتشرح هذا الحديث «آمنت بالله» ببيان النبي عليه الصلاة والسلام لوفد عبد القيس، ببيانه لجبريل في سؤاله التعليمي «هذا جبريل أتاكم يعلِّمكم دينكم»، بحديث الشعب حديث أبي هريرة، بحديث «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن**»، وغيرها من الأحاديث «**لا إيمان لمن أمانة له**»، وتمضي معك أحاديث كثيرة جدًّا شارحة للإيمان، تريد أن تفهم الإيمان ولا تفهم هذه الأحاديث!! فأنت تشتغل في ماذا؟! ولهذا النصيحة أن نعود إلىٰ طريقة السلف الصالح نقرأ الآيات ونقرأ الأحاديث ونحفظ النصوص، ونفهم كلام الله ونفهم كلام الرسول عليه الصلاة والسلام ونعمل بذلك، هذا هو الإيمان الذي أَمرنا الله ﷻ به ودعانا إليه، بيّنه في كتاب الله وفي أحاديث الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام.

وأختم بشيء يتعلَّق بهذه الأمور التي هي داخلة في مسمَّىٰ الإيمان يقسّمها العلماء إلىٰ أقسام ثلاثة:

القسم الأول يذهب الإيمان بذهابه.

والقسم الثاني: يذهب كمال الإيمان الواجب بذهابه.

والقسم الثالث: يذهب كمال الإيمان المستحب بذهابه.

فهي علىٰ أقسام ثلاثة، ولهذا لو تلاحظ حديث الشعب قال: «**أعلاها: قول: لا إله إلا الله، وأدناها: إماطة الأذىٰ عن الطريق**» هل من ترك الشهادتين مثل من ترك إماطة الأذىٰ عن الطريق؟ هل هما شيء واحد؟ هل الترك هذا واحد؟ «**أعلاها: قول: لا إله إلا الله، وأدناها: إماطة الأذىٰ عن الطريق**»، إذن هذه الشعب الداخلة في مسمىٰ الإيمان ليست علىٰ درجة واحدة، ليست علىٰ مستوىٰ واحد، هي كلها داخلة في مسمَّىٰ الإيمان، والإيمان شامل لها؛ لكنها متفاوتة في الدرجات:

منها ما يذهب الإيمان بذهابه.

منها ما يذهب كمال الإيمان الواجب بذهابه.

منها ما يذهب كمال الإيمان المستحب بذهابه.

وتوضيح ذلك:

لو إن إنسانًا يصلي ويصوم ويفعل الطاعات ويؤمن بما أمر الله تبارك وتعالىٰ بالإيمان به لكنه قال معتقدًا ذلك: أنا عندي شك في الملائكة وفي وجود الملائكة، ونحو ذلك، هل هذا عنده إيمان؟ صلاته صيامه حجه زكاته أعماله الأخرىٰ هل هذه تُقبَل منه؟ فمن الإيمان ما يذهب الإيمان بذهابه كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٥﴾ [المائدة]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ﴾ [التوبة:٥٤]، النفقات عمل طيّب يحبه الله ﷻ، ولكنه لا يقبله ممن ليس عنده إيمان، فمن الإيمان ما إذا انتفىٰ لم ينتفع الإنسان بعمله ولم تُقبل منه طاعته.

لو إن إنسانًا أتىٰ بأمور الإيمان ولكنه شكّ في القدر، ماذا قال ابن عمر في القدرية –والقصة موجودة في «صحيح مسلم» في أول حديث جبريل– ماذا قال فيهم؟ قال: "أخبرهم أنني بريء منهم وأنهم مني برءاء، وأن الله ﷻ لا يقبل من أحدهم صرفًا ولا عدلًا، لو أنفق أحدُهم مثل أُحد ذهبًا ما تقبله الله منه ما لم يؤمن بالقدر"، جبل أُحد تعرفونه جبل عظيم من جبال المدينة، فيقول: "لو أنفق أحدهم مثل أُحد ذهبًا ما تقبَّله الله منه ما لم يؤمن بالقدر"، فلو إن إنسان عنده صلوات وعنده صيام لكنه يجحد القدر ويقول: ليست الأمور بقدر، هل هذا عنده إيمان؟ ليس بمؤمن هذا كافر، فإذن من أمور الإيمان ما يذهب الإيمان بذهابه.

ومن أمور الإيمان ما يذهب كمال الإيمان الواجب بذهابه: ومن ذلك ما جاء في الحديث: «**لا يزني الزَّاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السَّارق حين يسرق وهو مؤمن**»، هذا الآن الذي زنىٰ أو سرق أو شرِب الخمر ما الإيمان الذي انتفىٰ في حقه؟ هل الذي انتفىٰ في حقِّه أصل الإيمان؟ يعني يكون معنىٰ «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن**» مَن زنىٰ فهو كافر، هل هذا هو المراد؟ أبدًا، ليس هذا هو المراد، وهل المراد بـ«**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن**» نفي كمال الإيمان المستحب؟ أيضًا ليس هذا هو المراد، إذن المنفي هنا هو كمال الإيمان الواجب، يعني مَن زنىٰ فإن إيمانه الواجب نقص بحسب ما وقع فيه من

هذه الأعمال، إذن من أمور الإيمان أمور واجبة فإذا نقص شيئًا منها نقص من الإيمان الواجب بحسب ما حصل منه في هذه الأمور.

الأمر الثالث: نقص الإيمان المستحب، إماطة الأذىٰ عن الطريق هذا من الأمور المستحبة، إذا رأيت في طريق المسلمين شيء يؤذيهم إما شوك أو حجر في طريق السيارات ربما يقلب سيارة ويضر بها فأوقفت سيارتك وأمطت هذا الحجر عن طريقه، هذا من الإيمان المستحب وقد يكون في بعض الأحيان واجب إذا كان يترتب علىٰ بقائه ضررًا محقَّقًا في حق المسلمين، وهذا عمل من أعمال الإسلام العظيمة، في «صحيح مسلم» يقول عليه الصلاة والسلام: «مرّ رجل في طريق فوجد غصن شجرة ذا شوك، فقال: والله لا أدع هذا في طريق المسلمين فيؤذيهم، فأخذ الغصن ونحّاه فشكر الله عمله فأدخله الجنة»، وانظر هذا الرجل الذي قام في قلبه رحمة للمسلمين ومحبة للخير لهم «والله لا أدع هذا في طريق المسلمين فيؤذيهم» فأماط، ونفس إماطة الأذىٰ التي هي من الإيمان يتفاوت الناس في ماذا؟ فيها، مع مباشرة عمل واحد من كثير منهم لكن يتفاوتون، ممكن أحد يُميط الأذىٰ من طريق المسلمين لأن هو يمر من هذا الطريق فيقصد في إماطته ألا يؤذي شخصه هو، ولا يلتفت بقلبه إلىٰ معنىٰ يتعلَّق بالمسلمين ورحمة لهم ومحبة خير لهم أو نحو ذلك، وآخر: لا، مثل هذا الرجل «والله لا أدع هذا في طريق المسلمين فيؤذيهم» فقام في قلبه من الرحمة والمحبة للمسلمين وتجنيب المسلمين ما يؤذيهم، فانظر هذا الإيمان، شكر الله عمله فأدخله الجنة؛ بل الرحمة بالحيوان في قصة الرجل أو المرأة البغي التي وجدت كلبًا أو وجد كلبًا يلهث من شدة العطش، فما كان معه إلا خُفّه فنزل في بئر وملأه ماء وأمسكه بفيه وخرج وسقىٰ هذا القلب رحمة منه فشكر الله عمله فغفر له، فهذه كلها أعمال إيمان يثيب الله عليها، يثيب علىٰ الرحمة التي في قلبك للمؤمنين، محبة الخير لإخوانك المؤمنين، النُّصح لهم، الإيثار، الأخوَّة، جميع هذه المعاني كلَّها يثيب عليها وهي من الإيمان.

فالشاهد أنَّ من أمور الإيمان ما يذهب الإيمان بذهابه، ومنها ما يذهب كمال الإيمان الواجب بذهابه، ومنها ما يذهب كمال الإيمان المستحب بذهابه، ومثّلتُ لكلٍّ بمثال أو ببعض الأمثلة.

وهنا يجب علىٰ المسلم أن يبتعد عن الخلط في هذه الأمور، وعن التعميم وكم أضر التعميم بالناس! يأتي ويعمم ولا يفصِّل ولا يميز بين الأمور، فيخلط ويعمم ويذكر أمورًا فتوجد إشكالات وخلافات وشقاق بين الناس وعداوات وخصومات ليس من ورائها طائل في نفع الناس في دينهم وإيمانهم

وعبادتهم لربهم تبارك وتعالىٰ.

وهناك رسالة أنصح بقراءتها في هذا الباب صغيرة الحجم كبيرة الفائدة للشيخ عبد الرحمن بن سعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ عنوانها «التوضيح والبيان لشجرة الإيمان» من أروع ما يكون في بيان الإيمان، مختصرة وكلها آيات وأحاديث وأدلة مع بعض التوضيح من الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ لها.

وقسّم هذه الرسالة إلىٰ أقسام ثلاثة:

القسم الأول: في حدّ الإيمان تفسيره.

والقسم الثاني: في الأمور التي يُستمد منها الإيمان.

والقسم الثالث: في فوائد الإيمان وثمراته.

وهي والله رسالة عظيمة جدًّا ونافعة «التوضيح والبيان لشجرة الإيمان» للشيخ عبد الرحمن بن سعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وهنا نقف ونسأل الله جل وعلا لنا ولكم التوفيق والسداد، وأسأله جل وعلا أن يزينني وإياكم بزينة الإيمان، وأن يجعلنا هداة مهتدين، وأن يصلح لنا جميعًا ديننا الذي هو عصمة أمرنا، وأن يصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا، وأن يصلح لنا آخرتنا التي فيها معادنا، وأن يجعل الحياة زيادة لن في كل خير والموت راحة لنا من كل شر، والله تعالىٰ أعلم وصلىٰ الله وسلم علىٰ نبينا محمد.

بسم الله الرحمن الرحيم
الدرس الثالث

إنَّ الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مُضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد ألَّا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمدًا عبدُه ورسوله، صلَّىٰ الله عليه وعلىٰ آله وأصحابه أجمعين وسلم تسليمًا كثيرًا.

أمَّا بعد...

أيها الإخوة الأكارم في الليلة البارحة والليلة التي قبلها بدأنا ببعض المقدِّمات في الإيمان، ونواصل في هذه اللَّيلة مستعينين بالله وحده في تتميم هذا الموضوع ببيان بعض المقدمات المهمة التي يُحتاج إليها في دراسة الإيمان والعقيدة الإسلامية الصحيحة المتلقَّاة من كتاب الله عَزَّوَجَلَّ وسنة نبيه صلوات الله وسلامه عليه.

وقد أشرت فيما سبق إلىٰ مكانة الإيمان وعظم شأنه وشدة حاجة الناس إليه، وأن الإيمان هو زينة المرء الحقيقية وجماله وبهاؤه وحسنُه، قد جاء في حديث عمار بن ياسر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في الدُّعاء الذي كان يدعو به النبيُّ ﷺ في صلاته، وفي آخر الدعاء يقول عليه الصلاة والسلام: «**اللَّهُمَّ زيِّنَّا بزينة الإيمان، واجعلنا هداةً مهتدين**»، فالإيمان هو الزِّينة الحقيقة؛ ولهذا قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ٧ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ﴾[الحجرات]، ولما ذكر تبارك وتعالىٰ اللِّباس الذي يواري سوءة الإنسان والزِّينة التي يتزيَّن بها الإنسان ويواري بها سوءته قال الله: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ﴾[الأعراف:٢٦]، ولباس التقوىٰ هو لباس الإيمان، فالإيمان لباسٌ وزينةٌ وجمالٌ وحليةٌ وبهاءٌ لمن منّ الله تبار وتعالىٰ عليه به.

وكثير من النَّاس ذهبت أفهامُهم وانصرفت عقولهم إلىٰ الانشغال بالزِّينة الحسِّية عن الزِّينة الحقيقة، انشغلوا بزينة اللباس وتوسعوا في هذا الأمر توسُّعًا في بعض حالاته يخالف الشريعة ويُضِرُّ بالدِّين وينقص الإيمان، ولا سيما من ابتلوا من الرجال والنساء بالتشبه بأعداء الدِّين في لباسهم وهيئتهم وطريقة قصهم لشعرهم وما إلىٰ مما وُجد في بعض مَن ذهب عنه معنىٰ اللِّباس الحقيقي والزينة الحقيقية.

فعلينا أن نعلم أن جمال المرء وزينته حقيقة وصدقًا وبهاؤه بهذا الإيمان، فإذا انسلخ المرء من الدِّين وعُدم فيه الإيمان فإنَّه لا زينة فيه، حتىٰ وإن تجمَّل بثيابه أو بهرج نفسه بزينته أو نحو ذلك لا جمال له فيه

ولا زينة؛ لأن الزينة حقًّا والجمال صدقًا إنما هي بالإيمان الذي خُلقنا لأجله وأوجدنا لتحقيقه.

والإيمان هو حياة الإنسان الحقيقية وبدون الإيمان تكون حياتَه بهيميَّة شبيهًا بالأنعام التي تأكل وتشرب وتلعب، فبالإيمان يكون حيًّا حياةً حقيقية؛ ولهذا قال الله تبارك وتعالىٰ: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ [الأنعام:١٢٢]، وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال:٢٤]، وقال تعالىٰ: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝١ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ﴾ [النحل]، فسمَّىٰ الوحيَ روحًا؛ لأن فيه حياة القلوب وذهابُ موتها، فالقلوب تحيا بالوحي كما يحيا النَّبات والعُشب بالماء، قال الله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ۝١٦ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾[الحديد]، وهذا فيه لفت انتباه كما أنه تبارك وتعالىٰ يحيي الأرض الميِّتة بعد موتها بالماء فإنه تبارك وتعالىٰ يحيي القلب الميت بالوحي، فحياة القلوب حقيقة إنما تكون بالإيمان.

فالإيمان هو الحياة حقيقة، وهو الزينة حقيقة، وهو الجمال حقيقة، وهو الذي به سعادة الدنيا والآخرة، وبه أيضًا حيازة الفلاح كما قال الله تبارك وتعالىٰ: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥﴾[البقرة]، فأهل الإيمان هم الذين جمعوا الخير كله وحازوه من جميع أطرافه في الدنيا والآخرة، وقال الله تعالىٰ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١﴾[المؤمنون]، فالفلاح إنما يُنال بالإيمان، وفي الحديث يقول عليه الصلاة والسلام: «**قولوا: لا إله إلا الله؛ تفلحوا**» إلىٰ هذا كان يدعو صلوات الله وسلامه عليه.

وقد أشرتُ فيما سبق إلىٰ شيء من ثمار الإيمان، ومن المهم في دراسة الإيمان أن يعرف طالب العلم قيمة الإيمان ومكانته وثمراته وعوائده عليه في الدنيا والآخرة؛ لأنك كلَّما عرفت قيمة الإيمان ومكانة الإيمان والثِّمار العديدة التي ينالُها أهل الإيمان ازددتَ حبًّا في الإيمان ورغبةً في الاستمساك به وحرصًا علىٰ الثَّبات عليه، فإذن هذه من المقدِّمات المهمَّة أن يعرف طالب العلم وأن يتوسَّع في معرفة ثمار الإيمان، وقلت لكم: إن الشيخ عبد الرحمن بن سعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه «التوضيح والبيان لشجرة الإيمان»

أجاد وأفاد في هذا الباب وتوسع في ذكر الدلائل من كتاب الله وسنة نبيه صلوات الله وسلامه عليه المبيّنة لثمار الإيمان الحميدة وفوائده المباركة وعوائده الطيبة علىٰ أهل الإيمان في الدنيا والآخرة.

ثم إنَّ الإيمان له أسماء باعتبار متعلقاته:

فهو يسمىٰ «**الإيمان**» باعتبار أن المطلوب من المؤمن الإقرار والانقياد والإذعان والامتثال لله تبارك وتعالىٰ، مطلوبٌ منه أن يؤمن بالله وبكلِّ ما أمره تبارك وتعالىٰ بالإيمان به.

ويسمىٰ «**التوحيد**» -خاصَّةً الإيمان بالله جل وعلا-؛ لأن مبنىٰ الإيمان علىٰ الإيمان بوحدانية الله: في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، وهذه أركانٌ للإيمان بالله، فالإيمان بالله هو الإيمان بوحدانية الله في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، وإنما سُمِّي دين الإسلام توحيدًا؛ لأن مبناه علىٰ الإيمان بوحدانية الله، وحدانية الله في ربوبيته، ووحدانيته تبارك وتعالىٰ في ألوهيته، ووحدانيته في أسمائه وصفاته.

ويسمىٰ هذا العلم: «**أصول الدين**» أو أصول الإيمان؛ لأن المسائل التي تُبحث فيه أصول ينبني عليها الدين وأسس يقوم عليها، ومن المعلوم أن الأساس بالنسبة للبناء بمثابة العِماد الذي يرتكز عليه ويقوم، وقد قيل:

والبيـــت لا يُبتنـــىٰ إلا بأعمـــدة ولا عمـــاد إذا لـــم تُـــرسَ أوتـــادُ

فأصول الإيمان مكانتها بالنسبة للإيمان وأعماله وشرائع الدِّين بمكانة أصل الشَّجرة من الشجرة، وبمكانة الرَّأس من الإنسان، وبمكانة العماد والرُّكن من البناء، وبمكانة عمود الخيمة الذي لا قيام لها إلا عليه، فالإيمان لا يقوم إلا علىٰ أعمدة وأصول وأركان، ولهذا سُمِّيت العقيدة أو التوحيد أو مسائل الإيمان: أصول الإيمان؛ لأن قيام الإيمان إنَّما يكون عليها.

ونحن نعلم أن البيت الذي يقوم علىٰ أعمدة إذا انهدم عمودٌ منها انهدم البيت، والشجرة القائمة علىٰ أصل إذا قُطع أصلها انعدمت الشجرة، فأصول الإيمان هي للإيمان أساسٌ ولبنائه عمادٌ لا يقوم إلا عليها، ولهذا تأمل هذا المعنىٰ المبارك في قول الله تبارك وتعالىٰ في سورة إبراهيم: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾﴾ [إبراهيم]، وهذا مثلٌ ضربه الله تبارك وتعالىٰ للإيمان، فالإيمان مثَلُه مثل الشَّجرة، والمرادُ بالشَّجرة هنا تحديدًا النَّخلة؛ لأنه ثبت في «الصحيحين» من حديث ابن عمر أن النبي ﷺ فسَّر الشجرة هنا بالنخلة، والحديث له قصَّة -لعلَّ الكثير منكم يعلمها- وهي أنَّ النبي عليه الصلاة والسلام أوتي بجُمّار نخلة، وجمَّار النخلة هو قلبها، وطعمه

لذيذ ونكهته طيبة، ومن يعرفه يعجبه مذاقه، فأوتي عليه الصلاة والسلام بجمَّار نخلة فأكل من جمارها ثم تركه أمامه، ثم حدّث الصَّحابة سألهم قال: «أخبروني عن شجرة لا يتحاتُّ ورقها» ولا كذا ولا كذا، يعني ذكر صفات، «ما هي؟» وأمامهم جُمّار النخلة أكل منه عليه الصلاة والسلام ثم سألهم هذا السؤال، وهذه -علىٰ التعبير المعاصر الآن- وسيلة إيضاح أمامهم تقرِّب الجواب وتُدني إلىٰ الذِّهن الفهم، فقال: ""أخبروني عن شجرة لا يتحات ورقها ولا يتساقط» وذكر صفات «فخاض الصحابة في شجر البوادي» ذهبوا بعيدًا وأخذ كلٌّ يقترح ويسمِّي شجرة من أشجار البوادي، أشجار يعرفونها في البادية متماسكة ورقها قوي ما يتساقط، فبدأ كلٌّ يسمِّي شجرة من شجر البوادي، ابن عمر كان ممَّن حضر هذا السؤال يقول: «فوقع في نفسي أنها النخلة» ولكن والده حاضر، وأبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حاضر، فمكانة هؤلاء في قلبه جعلته يستحي أن يقول: هي النخلة، وانظروا وقار صغار الصحابة لكبار الصحابة، وجمال أدب الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ في حديثهم واحترامهم للكبار وتوقيرهم لهم، الآن الصَّغير ما يبالي لو والده في المجلس ولو في عالم أو شيخ في المجلس يرفع صوته ويتكلَّم، فقال ابن عمر «وقع في نفسي أنَّها النخلة، ولم يمنعني أن أقول هي النخلة إلا مكانة أبو بكر وعمر» فجلس ساكتًا وهو عنده الجواب، ونفسه تودُّ أن يقول الجواب، والجواب في نفسه؛ ولكنه ساكت لمكانة والده، فما أجمل هذا الأدب! فلما ما أجاب أحد بالجواب الصحيح قال عليه الصلاة والسلام: «هي النَّخلة»، يقول ابن عمر: (فلما خرجنا من المجلس قلت لأبي: والله لقد وقع في نفسي أنها النخلة، قال: ما منعك أن تقول) الأب يفرح أن ابنه يجيب الجواب الممتاز والجيد، قال: ما منعك أن تقول، والله ما منعني إلا مكانك ومكان أبي بكر، قال: والله لو كنت قلتَ -يعني أجبت بذلك- فأنه أحب إليَّ من كذا وكذا. يعني: ودّ أنه لو أجاب علىٰ هذا السؤال.

الشاهد أن النبي عليه الصلاة والسلام فسّر الشجرة المذكورة في الآية بأنها النخلة، ولهذا في بعض طرق الحديث «أن النبي عليه الصلاة والسلام تلا هذه الآية وقال: أخبروني عن شجرة لا يتحات ورقها» ولا كذا «ضربها الله مثلًا للمؤمن»، فذكر أنها النخلة.

النخلة -ولا أريد حقيقة أن أتوسع في هذا الموضوع حتىٰ لا نخرج عن المقصود- النخلة لها أصل ولها فرع بهذا وصفها الله قال: ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾، ومَن يعرف النَّخيل النخلة كل ما طابت الأرض ويحسن سقيها تضرب أصولها في بطن الأرض وتعرِّض وتمتد إلىٰ أماكن عميقة في الأرض، ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ

﴿وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾﴾، كل ما كان الأصل قويًا متمكنًا في الأرض بدأ التفرع يزيد وبدأ التمر يجود ويحسن، ولهذا النخلة من عجائبها أنها ما تثمر في كل أرض وأحيانًا ما تنبت في كل أرض، في بعض الأراضي تموت وفي بعض الأراضي ما تثمر، والإيمان ما ينبت في كل قلب، إنما ينبت الإيمان في القلب الذي كتب الله عَزَّوَجَلَّ له الهداية، ثم إنَّ الإيمان أصله في القلب وكلما رسخ الإيمان في القلب وتمكن منه وتعمق القلب من الإيمان بدأت فروع الإيمان ﴿تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ﴾ [إبراهيم:٢٥] بالأعمال الطيِّبة والعبادات النافعة والأخلاق الزاكية والمعاملات الكريمة، تؤتي أُكلها كل حين، ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ﴾، هنا في هذه الآية ذكر الله تعالىٰ أربعة وجوه للشبه بين المؤمن وبين النخلة:

الوجه الأول: ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ الطيب، فالنخلة وصفها الطيب والمؤمن وصفه الطيب.

والأمر الثاني: ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾ ثبات الأصل، والمؤمن أصل إيمانه ثابت في قلبه.

﴿وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾﴾ النخلة فرعها يمتد في السماء وثمارها وأغصانها، والمؤمن تتفرع من شجرة إيمانه الأعمال الزاكية والأخلاق الطيبة والمعاملات الكريمة.

و﴿تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ﴾ أي: ثمارها، والنخلة لها ثمار وهي تؤكل كل حين، وقت الرطب تؤكل رطبًا وفي بقية العام تؤكل تمرًا، وفي زماننا هذا أصبح ثمرها يؤكل رطبًا في كل السنة لأنها أصبحت في الحافظات والثلاجات، فأصبح الرطب يؤكل كل السنة، فثمرها يؤكل رطبًا علىٰ مدار السنة، بينما سابقًا يؤكل ثمرها علىٰ مدار السنة في أول ظهوره رطبًا ثم يؤكل في بقية العام تمرًا، فلا تُعدم غالب بيوت الناس من ثمر النخلة، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «**بيت لا تمر فيه جياعٌ أهله**».

شاهدي من ذلك أصول الإيمان، الإيمان له أصول وهذا واضح في هذا المثل الذي في هذه الآية الكريمة.

وتسمىٰ أيضًا «**العقيدة**»؛ لأن العقد مأخوذ من الربط، عندما تقول: عقدت الحبل؛ أي: شددته وأوثقته. وتسمىٰ أصول الإيمان وأمور التوحيد تسمىٰ عقيدة، لماذا؟ لأنه لا يكفي فيها إلا الرَّبط الجازم واليقين التَّام والإيمان الراسخ ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ﴾[الحجرات:١٥] أي: أيقنوا ولم يشكّوا، فما يكفي مجرَّد الظن أو حصول الريب أو وجود الشك، ما يكفي، لابد من العقيدة، يعني لابد أن تعقد قلبك وتربط علىٰ قلبك بهذه الأمور بحيث تكون منعقدة في القلب مرتبطة في

القلب متمكِّنة فيه، ولهذا سُمِّيت عقيدة، وجاء في كثير من كتب السلف رحمهم الله تسمية أصول الإيمان: عقيدة، وهي تسمية صحيحة لأنها مبنية علىٰ معنًىٰ صحيح، والألفاظ قوالب المعاني، فعندما يقال: عقيدة –مثلًا– عبد الغني المقدسي، أو يقال: عقيدة شيخ الإسلام ابن تيمية، أو يقال: عقيدة الإمام أحمد بن حنبل، أو يقال: عقيدة الشافعي أو نحو ذلك، فيه كتب أُلِّفت في التوحيد أو في الإيمان تسمىٰ بهذا الاسم عقيدة فلان، وعندما يقال عقيدة فلان نسبتها إليه لأنه جمعها، فهي عقيدته باعتبار جمعه لها وباعتبار أيضًا إيمانه بها، وإلا العقيدة هي عقيدة كل مسلم لا تختص بمن ألّف الكتاب؛ لكن عندما نقول: عقيدة أو نحو ذلك؛ المراد بهذه النسبة: إيمانه بها هذا من جهة، وأيضًا جمعه لموضوعاتها وجمعه لأدلتها.

فهذه بعض أسماء هذا العلم: أصول الإيمان، التوحيد، الإيمان، العقيدة، وكلها تدور حول دلالات معينة.

بعض من بنوا أمور العقيدة علىٰ علم الكلام –وهذه من الأخطاء التي وُجدت في بعض المدارس، مدارس التعليم في القديم والحديث– بنوا علم تدريس أو دراسة العقيدة علىٰ علم الكلام، وقد قال الإمام الشافعي أو أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ: "ما ارتدىٰ أحد بالكلام فأفلح" لأننا عرفنا –قبل قليل– أن الفلاح في الإيمان، والمراد بالفلاح من الإيمان الفلاح المأخوذ من الكتاب والسنة، إقرأ معي مرة ثانية ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢﴾ يعني: القرآن، ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥﴾ [البقرة]، فالفلاح ارتبط بماذا؟ بسلامة المصدر، ﴿يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾، فمن يبني عقيدته علىٰ الكتاب والسنة يفلح، لكن من يبني عقيدته علىٰ علم الكلام ماذا يكون شأنه؟ يقول الإمام أحمد أو الشافعي –الآن لا أذكر تحديدًا– يقول: "ما ارتدىٰ أحد بالكلام فأفلح" ما معنىٰ "ما ارتدىٰ"؟ يعني من جعل علم الكلام رداء له، بحيث يلازم علم الكلام ويحاول أن يعرف أمور الاعتقاد منه.

وفعلًا بعض الناس دخلوا هذا المدخل وأرادوا أن يعرفوا أصول العقيدة وأسس الدِّين وثوابت الملة من خلال علم الكلام، وخاضُوا تجارب كلَّها من أولها إلىٰ آخرها باءت بالفشل بشهادة أساطين المتكلِّمين، والأمثلة في هذا تطول؛ لكنني أشير إلىٰ شيءٍ منها: الغزالي في كتابه «إحياء علوم الدين» وقد خاض في علم الكلام وقال عن نفسه: "دخلتُ في العلم الذي نهاني عنه علماء الإسلام، ودخلت في

بحاره، وخضت في بحره الخِضَمّ حتىٰ بلغت نهايته" هذا الكلام يقوله هو في كتابه «إحياء علوم الدِّين»، ثم يقول: "وقد علمتُ –يعني من خلال بحثي الطويل، ومعايشتي الطويلة والمديدة لهذا العلم– "وقد وصلتُ إلىٰ أن الوصول إلىٰ الحق من طريق علم الكلام مسدود" هكذا يقول، يعني ما يمكن تصل إلىٰ الحق من طريق علم الكلام، وقال: "هذا الكلام خذه من مجرِّب، لو سمعته من محدِّث –يعني من أحد علماء الحديث– لقلتَ: الناس أعداء ما جهلوا"؛ لأن علماء الحديث يجهلون علم الكلام فيذمونه لأنهم يجهلونه، لكن يقول: "خذ هذا من مجرِّب"، أنا جرَّبت وبلغت في علم الكلام نهايته، وقد وصلت إلىٰ هذه النتيجة أنَّ الوصول إلىٰ الحق من طريق علم الكلام مسدود، ومع ذلك –سامحه الله وعفا عنه– لما ذكر العقيدة في كتابه «إحياء علوم الدين» بناها علىٰ علم الكلام، ولهذا ما ترىٰ في باب العقيدة في كتابه «إحياء علوم الدين» ما ترىٰ ذكر للآيات واستدلال بالحديث إلا أندر النادر، وإلا فكل أدلته بما أنه كذا إذن يكون كذا، ولو كان كذا لكان كذا، ومضىٰ يستدل علىٰ العقيدة بهذا الذي لا يوصَل من خلاله إلىٰ الحق، والوصول إلىٰ الحق من خلاله مسدود.

وآخرين مثله كُثُر دخلوا في هذا الأمر وبعضهم أخذ يصرح مثل الجويني في آخر حياته قال: "لئن لم يتداركني الله برحمته فالويل لابن الجويني"، ثم قال: "الفائز من مات علىٰ دين العجائز" يعني دخل في علم الكلام وتوسَّع فيه، ما وصل من خلاله إلىٰ شيء! وأحد المتكلمين يحكي قصته كما ذكر ذلك ابن أبي العز في شرح «العقيدة الطحاوية» يقول: "آتي في الليل وأغطي رأسي بالملحفة وأبدأ أعرض أدلة المتكلمين، وهذا استدل بكذا وهذا استدل بكذا" يقول: "حتىٰ يأتي الصباح وما عرفت شيئًا"، فدخلوا في متاهات وفي اضطرابات وفي شكوك حتىٰ قال قائلهم:

نهايـــة إقـــدام العقـــول عِقـــال وآخـــر ســـعي العـــالمين ضـــلال

لم نستفد مـن جمعنـا طـول عمرنـا ســـوىٰ أن جمعنـــا قيـــل وقـــالوا

يعترفون اعترافات بأنهم ما حصّلوا علمًا راسخًا ولا عقيدة ثابتة ولا إيمانًا يقينيًّا، وإنما دخلوا في اضطرابات وشكوك، ولهذا أكثر الناس حيرة وأعظم النَّاس شكًّا: علماءُ الكلام، ذكر ابن أبي العز أن أحد عوام أهل السُّنّة دخل علىٰ اثنين من المتكلمين، وكانوا يبحثون في مسائل في العقيدة وفي الإيمان علىٰ طريقة الكلام، فقالوا له: ما تعتقد؟ –ما هي عقيدتك أنت؟– قال: أعتقد ما يعتقده المسلمون، قالوا له: وقلبك مطمئن بذلك؟ قال: نعم، يقول: فبكىٰ، وقال: أما أنا والله ما أدري ما أعتقد، والله ما أدري ما

أعتقد، والله ما أدري ما أعتقد"، لماذا لا يدري ما يعتقد؟ لأنه دخل في علم كلام ومنطقيات وجدل ثم يتبيَّن له أن الصواب كذا، فيأتي رجل أكثر جدلًا وأوسع علمًا في المنطق فيذكر له حُججًا أخرىٰ فينتقل إلىٰ عقيدته، ثم يأتي شخص أوسع من هذا فينتقل إلىٰ عقيدته، ولهذا يُكثر علماء الكلام من التنقُّل، تجد الواحد منهم كل يوم في عقيدة، ولمَّا ذمَّ السلف علماء الكلام قالوا: "إيَّاكم والتنقل في الدِّين".

وقد جاء مرة رجلٌ إلىٰ الإمام مالك رَحِمَهُ اللَّهُ، والإمام مالك إمام دار الهجرة أحد الأئمة المعروفين، جاءه رجل وقال: "أنا أريد أن أتناظر معك، قال: فإن غلبتني؟ قال: تتبعني، قال: فإن غلبتك؟ قال: أتبعك، قال: فإن جاء شخص ثالث وغلبنا؟ قال: نتَّبعه، قال: يا هذا ليس دينُ الله لمن غلب" يعني ليست المسألة أنا نجلس والذي يغلب الثاني يكون الصَّح معه، ما الجواب علىٰ هذا السؤال إذا قال: ليس دين الله لمن غلب؟ الجواب الصحيح: من معه الكتاب والسنة، ما هو الدين لمن غلب، قد يجلس ضعيف الدين مع أحد كبار المتكلمين يُسكته، يُدخل عليه الكلام من هنا من هنا من هنا، حتىٰ إنهم قالوا عن بعض علماء الكلام علىٰ وجه المدح وهو في الحقيقة ذم، يقولون: يستطيع أن يقنعك أن هذا الجدار الذي تراه أمامك أصفر أو أحمر أنه أبيض، ويبدأ يُجمِّع لك الكلام ويلوي لك الحديث فتقول: لا، فعلًا هذا أبيض، من الكلام وطريقة العرض، فليس في هذا مدح، لما يكون الرجل يلحن في حجته ويُحسِن عرض الكلام هذا لا يعني أن ما يقوله حقٌّ وصدق، فقال: "ليس الدين لمن غلب"، وقال عمر بن عبد العزيز: "من جعل دينه عُرضة للخصومات أكثر التنقُّل" فالدِّين ما يُجعل عُرضة للخصومات، الدِّين كتاب وسنة، وقد أوضحت بالأمس الذي يريد أن يتعلم الدين يقرأ الآيات ويقرأ الأحاديث وينظر ماذا فهم السلف الصحابة ومن تبعهم بإحسان من هذه الآيات هذا هو الدين، أما خصومات وجدل وآراء وعقول ومقترحات هذه كلّها ركام يضر الناس ولا ينتفعون به.

ومن البلية أن بعض هؤلاء جعل اسم علم العقيدة لمّا يريد أحد منهم أن يؤلف كتاب في العقيدة يسمي الكتاب علم ماذا؟ علم الكلام، ولما يكون أيضًا قسم في مؤسسة يتعلق بالعقيدة يقول: علم الكلام، وبعضهم يضيف إليها إضافة بغيضة يقول: علم الكلام والفلسفة، ماذا يبحثون هنا؟ العقيدة، وعنوان البيت يدلُّك علىٰ ما فيه، العقيدة التي يبحثونها ما هي؟ كلام وفلسفة، كأن الكتاب والسنة ما فيهما بيان للعقيدة الصحيحة التي تعبّدنا الله سبحانه وتعالىٰ بها.

هذا يقودنا إلىٰ التنبيه علىٰ أمر وهو من المقدمات التي نحتاجها أيضًا في دراسة العقيدة، ألا وهو أن

من يدرس العقيدة ينبغي أن يعرف ما المنبع الذي تُستقَىٰ منه، وما المصدر الذي يُعوَّل عليه فيها؟ إذا رأيت الناس في عقائدهم سواء منهم من هو منتسبٌ للإسلام أو ليس منتسب له تجد عقائد وتجد مذاهب وتجد آراء وتجد محن وتجد أهواء، أمور كثيرة، والنبي عليه الصلاة والسلام أشار إلىٰ أن هذا سيوجد في حديث العرباض بن سارية عندما قال: «إنه من يعش منكم فسيرىٰ اختلافًا كثيرًا»، وفي الحديث الآخر قال: «وستفترق هذه الأمة علىٰ ثلاثٍ وسبعين فرقة، كلُّها في النار إلا واحدة» وهذا من أحاديث الوعيد، فهذه الآراء وُجدت كما أخبر عليه الصلاة والسلام وهو الصادق المصدوق الذي لا ينطِق عن الهوىٰ، إن بحثت ونظرت في كتب الفرق والمقالات عن سبب كَثرة هذه المقالات وتعدُّدها إلىٰ أيِّ شيء يرجع؟ استحضر في ذِهنك إلىٰ أي شيء يرجع؟ لو اعتصم الجميع بالكتاب والسنة، وعوّلوا تعويلًا كاملًا عليهما، أيوجد مثل هذا الخلاف؟! ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾[آل عمران]، فلو وُجد تعويلٌ كامل علىٰ كتاب الله وسنة نبيه ما يوجد شيء من هذا، ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ [آل عمران:١٠٣]، ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [النساء:٥٩]، ولهذا لاحظ حديث العرباض لما ذكر الاختلاف عليه الصلاة والسلام قال: «**إنه من يعش منكم فسيرىٰ اختلافًا كثيرًا**»، هنا سؤال يطرح نفسه: عندما تسمع «**إنه من يعش منكم فسيرىٰ اختلافًا كثيرًا**»، من يريد لنفسه السلامة ومن يريد لنفسه النجاة إذا سمع «**إنه من يعش منكم فسيرىٰ اختلافًا كثيرًا**» ما السؤال الذي ينقدح في ذهنه؟ ما النجاة؟ هذا هو السؤال الذي يطرح نفسه، ما المخرج؟ ما الحل؟ ما سبيل النجاة؟ فأجاب عليه الصلاة والسلام دون أن يُسأل، وهذا من كمال نصحه وتمام بيانه عليه الصلاة والسلام: «**إنه من يعش منكم فسيرىٰ اختلافًا كثيرًا، فعليكم بسنَّتي وسنة الخلفاء الرَّاشدين المهديين من بعدي، تمسَّكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ، وإيَّاكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة**» فأرشدنا عليه الصلاة والسلام أن المخرج بأمرين: لزوم السنة، ومجانبة البدعة، ولهذا أول ما بدأ ابن أبي داود منظومته الجميلة في العقيدة، قال:

تمسَّك بحبل الله واتبع الهدىٰ ولا تكن بدعيًّا لعلك تفلح

يعني: ليكن هذا هو مصدرك، وهذا المعوَّل حتىٰ تسلم، تتمسك بحبل الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام وتتجنب البدع حتىٰ تكون من المفلحين.

إذن ما سبب الخلاف؟ نحن الآن دلنا الحديث علىٰ أن السلامة بالرجوع إلىٰ الكتاب والسنة والبعد

عن البدع، إذن ما سبب الخلاف؟ تنوُّع المصادر، والإعراض عن الكتاب والسنة، ولو نظرت في مصادر الفِرق بعقائدهم تجدها مصادر مختلفة، منهم من مصدره في العقيدة: العقل، وكثير من ينحوَن هذا المنحىٰ، ويقعّدون قاعدة يقولون: نحن أصلا ما عرفنا النقل –الذي هو الكتاب والسنة– إلا بالعقل، فلو قدَّمنا النقل علىٰ العقل لقدّمنا المدلول علىٰ الدَّليل؛ لأن الدليل علىٰ صحَّة النقل هو العقل، لأنهم يقولون: ما عرفنا النقل إلا بالعقل، فكيف نقدِّم النقل، ولهذا يقولون: العقل مقدَّم.

وهنا يأتيهم أسئلة كثيرة: إذا قيل لهم العقل مقدَّم، يأتي سؤال طويل عريض لا جواب لهم عليه ألا وهو: عقل مَن المقدَّم؟ هل عقول الناس عقل رجل واحد؟ أو عقول مختلفة، العقول كثيرة، فيه عقول الفلاسفة، وفيه عقول الملاحدة، وفيه عقول الزنادقة، وفيه عقول أهل الشهوات، وفيه عقول أهل الشبهات، فإذا كان العقل مقدّم فعقل مَن المقدم؟ فيا سبحان الله! ولهذا لما قدموا العقل تنوعت العقائد عندهم بحسب العقول التي يعولون عليها، كلّما عوّلوا علىٰ عقل من عقول الناس ذهب بهم إلىٰ نوع آخر من العقيدة، وهكذا تنفتح عليهم أبواب من العقائد والعقائد والعقائد بحسب تفاوت العقول، ولهذا أحد السلف قال: "لو كانت الأهواء هوىٰ واحدًا، لقيل: إنّه الحق، ولكنها أهواء"، وأيضًا نفس الكلام نقوله: لو كانت العقول عقلًا واحدًا لقيل: إنه الحق.

ثم إذا كان المقدم هو العقل يأتي سؤال آخر لهؤلاء: ما فائدة بعثة الرَّسول؟ إذا كان أي شيء يقوله الرسول ﷺ يُعرض علىٰ العقل إن قَبِلَه وإلا يُردّ إذن ما فائدة بعثته؟

ولهذا أحد العلماء المتقدمين ألزم هؤلاء إلزامًا، قال: "من لازم قول هؤلاء: أن يقول الواحد منهم: أشهد أن عقلي رسول لله" ما دام أن العقل هو المقدَّم وهو العمدة وما يأتي به الرسول يعرض علىٰ العقل فإن قبله العقل وإلا يُرد إذن ليقل الواحد منهم: أشهد أن عقلي رسول الله!!

وأهل العلم ذكروا إلزامات كثيرة لهؤلاء لكن قد يطول الكلام عليها، لكنني بمناسبة ذكري لما يورده هؤلاء للاحتجاج علىٰ تقديم العقل قالوا: الذي دلنا علىٰ صحة النقل من هو؟ العقل، يقول: لولا العقل ما عرفنا صحة النقل فإذن كيف نقدم النقل عليه، أحد أهل العلم ضرب لهؤلاء مثلًا يوضِّح خطأ هذا التقرير، قال: لو أن رجلا مستفتيا –يطلب فتوىٰ– مشىٰ في طريق يبحث عن مُفتٍ يفتيه في مسألة، فوجد رجل عامي مثله فسأله: قال له: أنا عندي مسألة مشكلة أريد من يفتيني بها، فقال له هذا العامي: أنا لست من العلماء ولا عندي قدرة علىٰ الفتوىٰ ولكنني أعرف عالم محقِّق أدلك عليه تستفتيه، قال له: جزاك

الله خير دلني علىٰ هذا العالم، فأخذه إلىٰ العالم فسأل هذا المستفتي العالم فأجابه، فلما انتهىٰ العالم من الجواب، قال هذا العامي الذي دلّه إلىٰ العالم: جوابه خطأ، وجواب مسألتك كذا وكذا ويجب أن تقبل قولي دون قوله؛ لأني أنا الذي دليتك عليه وأنا الذي قلت لك أنه عالم، فما رأيكم، يأخذ قول العامي أو يأخذا قول العالم؟ العامي يقول: أنا الذي دللتك عليه ولولا أني دليتك عليه ما عرفت أنه عالم، فيجب أن تقبل قولي ولا تقبل قوله، وأمامه عالم محقِّق راسخ في العلم وجوابه مسدَّد وهذا ما عنده علم ويفتيه ويقول: لابد أن تقبل قولي لأني أنا الذي دللتك عليه وأنا الذي عرّفتك به أنه عالم.

هذا مثل هؤلاء يقولون: العقل هو الذي عرفنا به صحة النقل فإذن أي شيء يأتي به النقل نعرضه علىٰ العقل فإن قبله وإلا رددناه، هؤلاء مثل هذا العامي، إن صح التعبير نقول عنه: إنه أحمق يريد أن يفتي ويريد أن يقرِّر ويريد أن يحكم لا لشيء إلا لأنه هو الذي دلَّ الرجل إلىٰ بيت العالم أو مكان العالم فظنَّ أنه بهذه الدَّلالة إلىٰ بيت العالم أصبح مفتي وشيخ يجيب علىٰ الأسئلة؛ لأنه يعرف بيت العالم ودل المستفتي إلىٰ بيت العالم، هذا يوضِّح لكم المنطق الذي يتحدث به هؤلاء الذين يقولون: أن العقل مقدَّم.

فإذا قيل: قُدِّم العقل وأصبح هو العمدة في دراسة العقيدة هو العقل توجد مشكلة ولا أقول: توجد بل وجدت، أصبحت مدارس كثيرة ونشأت مناهج مختلفة والسبب: العقل، العقول متفاوتة، ولهذا قال الإمام مالك: "أوَ كلما جاءنا رجلٌ أجدل من رجل تركنا الكتاب والسنة لجدله؟!" يعني لو نعرض ديننا علىٰ عقول الرجال كلما يأتينا رجل أجدل من الآخر نترك الكتاب والسنة، ونمشي مع جدل هذا المجادل، فهنا تنشأ عقائد، إذن من المصادر التي وُجدت: العقل، وعرفتم ما فيه.

ومن المصادر وهذا يوجد عند المتصوِّفة: الذوق والوجد والحس والتجربة، وأشياء من هذا القبيل، وهذا يكثر عند المتصوِّفة تجد عندهم عبادات ما أنزل بها من سلطان، فإذا سئل عن دليله عليها أو مستنده في قيامه بها يقول: الذوق، أو يقول: الحس، أو يقول: التجربة، حتىٰ إن بعضهم أصبح يقرِّر الشرك الصُّرَاح عبادة القبور، والدَّليل: التَّجربة، مثل قول بعضهم: قبر فلان ترياق المجرَّبين، يعني: الذي يجرب يروح عند قبره ويدعوه يرىٰ الثَّمرة، نسأل الله العافية، فأصبح الدَّليل علىٰ الشرك وعبادة غير الله التَّجربة، يجرب أصحاب الأذواق الفاسدة؛ لأن

من يكن ذا فم مريضٍ يجد في المر الماء الزلال

تجد ذوقه فاسد، فتأتي عنده عبادات هي خرافات وضلالات يجد مذاقها جميل، المذاق الجميل الذي أحس به هو لهذه العبادة ناشيء من ماذا؟ من فساد ذوقه، ثم يصبح هذا الذوق الفاسد تجربة للآخرين يبنون عليه، يقولون: جرب فلان وجرب علان.

الآن تنظر تجد بعض الشِّركيات توجد بين بعض الناس بالتَّجربة، مثل بعض الأساور التي يلبسونها عن العين أو الأشياء التي يعلِّقونها عن الحسد، يسأل بعضهم بعضًا عنها يقولون: جرَّبنا وفلانة جربت وفلان جرب، وهذا شيء معروف مجرَّب، وينشرون الشرك والتعلق بغير الله بالتَّجربة، أصبحت التجربة دليل يستدلون به علىٰ صحة الحكم، وهكذا تجد أنه تنشأ عقائد وتنشأ أعمال باطلة بسبب بنائه علىٰ مثل هذه التجارب الفاسدة.

أيضًا آخرين يبنون عقائدهم علىٰ الاستدلال بالاسرائيليات والقصص والحكايات والمنامات، يأتي بعضهم بعبادة أو بأعمال معينة يقال له ما دليلك؟ يقول: رأيت في المنام كذا وكذا، وجاءني في المنام كذا وكذا وأخبرني بكذا، ويأتي بعقائد وعبادات المصدر: المنام، أو المصدر: حكايات، أو إسرائيليات أو قصص ونحو ذلك، فإذا أصبح هذا المصدر هو للعقيدة أو للعبادة فأي انحرافات ستُوجد! وأي مذاهب ستتعدَّد بسبب هذا الأمر!

ولو مضيتَ تبحث في المصادر التي جعلها هؤلاء للتلقي تجدها كثيرة، وأنت إذا نظرت هذه المصادر وتنوُّعها وتعددها وكثرتها بين الناس عليك أن تحمد الله ﷻ أن هداك إلىٰ كتابه وسنَّة نبيِّه ﷺ، فهذه والله نعمة، ولا عاصم من الضَّلال ولا وقاية من الفتن إلا بالعودة الصادقة لكتاب الله وسنة نبيه ﷺ، كما قال عليه الصلاة والسلام: «**إنه من يعش منكم فسيرىٰ اختلافًا كثيرًا، فعليكم**» -العقل؟ القصص؟ المنامات؟ التجارب؟ دلَّنا علىٰ شيء من ذلك؟- «**عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي**»، بعضُهم تُعرض عليه الآية المحكمة والسنة المُتبَعة التي تبيِّن له خطأ هذا الأمر فيأبىٰ قبول الآية ويرفض قبول الحديث؛ لأن فلان جرّب، أو لأن فيه القصة الفلانية، يبني علىٰ أشياء نسأل الله العافية والسلامة، وينصرف عن كتاب الله وسنة النبي عليه الصلاة والسلام.

فأنت عليك أن تحمد الله أن هداك إلىٰ كتابه وإلىٰ سنة نبيه ﷺ، وعليك أن تسأله جل وعلا أن يثبتك علىٰ الاعتصام بالكتاب والسنة، وأن يعيذك من الفتن، وأن يسلمك من الأهواء والبدع، وأن يثبِّتك علىٰ هذه العقيدة الصافية النقية المستمدة من كتاب الله ﷻ وسنة نبيه ﷺ.

والمقدمات في هذا الباب طويلة، فنكتفي علىٰ كل حال بهذا القدر، والله تعالىٰ أعلم وصلىٰ الله وسلم علىٰ نبينا محمد وعلىٰ آله وأصحابه أجمعين.

بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس الرابع

إنَّ الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيِّئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد ألَّا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وأصحابه أجمعين وسلم تسليمًا كثيرًا.

أمَّا بعد..

ففي الليالي الماضية مشينا بذكر بعض المقدِّمات المهمَّة في دراسة الإيمان، وفي هذه الليلة نواصل مستعينين بالله تبارك وتعالىٰ بالكلام علىٰ هذه المقدِّمات التي في الإيمان ودراسته وما يتَّصل به، وقد ذكرت شيئًا من فضائل الإيمان العظيمة وثماره الكريمة التي يحصِّلها أهل الإيمان.

ومن فوائد الإيمان مما لم أُشِر إليه فيما سبق:

أن أهل الإيمان يفوزون بولاية الله لهم؛ كما قال الله تبارك وتعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ﴾ [البقرة:٢٥٧]، فهذه الولاية العظيمة ولاية الله لأهل الإيمان، وما تقتضيه وتستلزمه من حفظٍ ورعايةٍ وتسديدٍ وتوفيقٍ هي ثمرة عظيمة وفائدة جليلة من فوائد الإيمان، ومن تولَّاه الله حفظه وأعانه وسدده ووقاه، ولهذا قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ﴾ [الحج:٣٨]، وقال تعالىٰ: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٤٧﴾ [الروم]، قال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٨٨﴾ [الأنبياء]، وهذه كلها من ثمار الإيمان: دفاع ونصر وحفظ وتأييد؛ بل قال الله تعالىٰ كما في الحديث القدْسي: «**من عاد لي وليًّا فقد آذنته بالحرب، وما تقرَّب إلي عبدي بشيء أحب إليَّ مما افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرَّب إلي بالنوافل حتىٰ أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يُبصِر به، ويده التي يبطش بها، وقدمه التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينه ولئن استعاذ بي لأعيذنه**»، وهذا فيه أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ يسدِّده في سمعه وفي بصره وفي يده وفي قدمِه، ويكون محفوظًا بحفظ الله تبارك وتعالىٰ له.

وهذا كلُّه ممَّا يدلُّنا علىٰ عِظم شأن الإيمان ورفيع مكانته وكِبر ثَمراته، ممَّا يجعل مَن منَّ الله عليه بهذه النعمة يحرص علىٰ المحافظة عليها والثَّبات عليها.

والثَّبات علىٰ الإيمان هو -أيضًا- منّة الله كما قال الله تعالىٰ: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ

فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾[إبراهيم].

ولهذا جديرٌ بأهل الإيمان ومَن ساق الله ﷻ لهم هذه النِّعمة وهداهم إلىٰ هذه المنّة أن يحرصوا علىٰ المحافظة عليه، وسؤال الله الثبات، والبعد عن كل سبب أو أمر يَخدِش الإيمان، أو يُنقصه أو يُضعفه، والله جل وعلا وحده الهادي والموفِّق والمعين.

ثم -أيها الإخوة- أهم ما يكون في الإيمان -والإيمان كله مهم عظيم- أصوله التي عليها يُبنىٰ وأسسه التي عليها يقوم، قد عرفنا بالأمس أنَّ الإيمان يقوم علىٰ أصولٍ ستَّة جاء ذكرها في حديث جبريل وهي: **الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره**، فهذه أصور الإيمان التي يبنىٰ عليها، وهي للإيمان بمثابة العماد والأساس والأصل، فلا قيام للإيمان إلا علىٰ هذه الأصول، وهي كما بيّن أهل العلم أصول مترابطة متلازمة لا ينفكُّ بعضها عن البعض الآخر، فالإيمانُ ببعضها يستلزم الإيمانَ بباقيها، والكفر ببعضها كفرٌ بباقيها، من آمن بأصول الإيمان كلِّها واستثنىٰ منها أصلًا واحدًا لم يؤمن به لم يقبل اللهُ جل وعلا منه إيمانَه بما آمن به، ولم يقبل منه عمله لا فريضة ولا نفلًا ولو كثرت أعماله، فهذه الأصول أصول مترابطة متلازمة لا ينفك بعضها عن بعض، فمن آمن ببعضها لزمه الإيمان بباقيها، ومن كفر بشيءٍ منها فهو كافر بها كلها؛ لأنها أصولٌ متلازمة مترابطة.

وهذه الأصول هي أعظم ما بُيّن في القرآن الكريم، وأعظم ما اتَّفقت عليه كلمة الأنبياء والمُرسلين، وأعظم ما أنزلت لأجله الكُتب الإلهية، ولهذا عندما تُطالع كتاب الله ﷻ تجد الآيات الكثيرة والحُجج الوفيرة الدَّالة علىٰ هذه الأصول، المبيّنة لعِظم شأنها ورفيع مكانتها.

وخذ علىٰ سبيل المثال في ذلك سورة البقرة، بُدئت هذه السورة العظيمة أول ما بُدئت بأصول الإيمان الستة، وختمت هذه السُّورة بأصول الإيمان الستة، في إحدىٰ آيتين خُتمت بهما هذه السورة جاء في فضلهما نصوصٌ عديدة عن رسول الله ﷺ سيأتي الإشارة إلىٰ شيء منها بإذن الله، وفي أثناء هذه السورة ذُكِرت هذه الأصول كرات ومرات، أما ما جاء في أول السورة من ذكرٍ لهذه الأصول الستة ففي قوله تبارك وتعالىٰ: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾﴾[البقرة]، فهاهنا ذُكرت الأصول السِّتّة.

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ هذه من أخصِّ صفات المؤمنين ومن أبرز صفات المتقين: إيمانهم

بالغيب، أي: بكل ما غاب عنهم مما أخبرتهم به رسل الله، وأصول الإيمان تدخل تحت هذا؛ تحت قوله: ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ فكلُّ ما غاب عنهم مما أخبرتهم به رسل الله يؤمنون به، خلاف الكفرة الذين يقولون: لا نؤمن إلا بالأمور المحسوسة والمعاينة والمشاهدة، أما ما غاب عن أعيننا ولم نشاهده بأحاسيسنا فلا نؤمن به، فهذا قول أهل الكفر والضلال.

أما المؤمنون فيؤمنون بالغيب، يؤمنون بكل ما أخبرتهم به رسل الله مما غاب عنهم، فالرسل أخبرت عن الله وعن أسمائه وعن صفاته وعن أفعاله، فكل ذلك نؤمن به ونصدِّقه، وأخبرت عما يكون يوم القيامة وما فيها من أهوال وشدائد وجنة ونار وغير ذلك فكل ذلك نؤمن به، وأخبر الرّسل بأمور سابقة وأمور لاحقة وقَصص متنوعة لم نشاهد شيئًا منها وإنما عرفنا خبرها عن طريق الرسل.

فمن أخص صفات أهل الإيمان: إيمانهم بالغيب، والغيب كلُّ ما غاب عن الإنسان ممَّا أخبرت به الرسل، وتحت قوله: ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ تدخل -كما قلت- هذه الأصول العظيمة.

ثم قال: ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ فذكر قيامهم بطاعة الله، وامتثالهم لأوامر الله ومحافظتهم علىٰ عبادة الله.

ثم ذكر إيمانهم بالكتب المنزّلة ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ ولاحظ هنا هذا يتضمن أمورًا:

يتضمن الإيمان بالكتاب المنزَّل.

ويتضمن الإيمان بمن أُنزل عليه الكتاب.

ويتضمن أيضًا بالواسطة الذي قام بإنزال الكتاب وهم الملائكة، ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ﴾ [النحل:٢]، ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا﴾ [القدر:٤]، ﴿لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾﴾ [الشعراء].

فهنا قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ فيه الإيمان بالملائكة، والملائكة واسطة في إنزال الكتب، فالله جل وعلا اقتضت حكمته تنزيل كُتبه علىٰ رسله بواسطة الرسول الملَك، فالرَّسول الملكي ينزِل بالوحي علىٰ الرَّسول البشري، ففي هذا الإيمان بالملائكة، وفيه الإيمان بالكُتب؛ يقول الله تعالىٰ: ﴿وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ﴾ [الشورىٰ:١٥]، أي: كلَّ كتاب أنزله الله علىٰ أي رسول نؤمن به، علمناه أو

لم نعلمه، وفيه كذلك الإيمان بالرَّسول الذي أُنزل عليه الكتاب ﴿بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ﴾ أي: علىٰ الرُّسل.

ثم ذكر الإيمان باليوم الآخر؛ قال: ﴿وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ﴾ فذُكرت أصول الإيمان الستة.

ثم ذكر فضل هؤلاء بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٥﴾.

وفي أثناء السُّورة قال الله تعالىٰ: ﴿لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾[البقرة:١٧٧]، فذكر أصول الإيمان السِّتّة، والمذكور هنا خمسة أصول والإيمان بالقدر داخل في الإيمان بالله؛ لأن القدر قدرة الله جل وعلا، وفي آخر السُّورة قال الله تعالىٰ: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ٢٨٥﴾[البقرة]، فذكر أصول الإيمان الستة: الإيمان بالله، والإيمان بالملائكة، والإيمان بالكتب، والإيمان بالرسل، ﴿كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾، وذكر أيضًا الإيمان باليوم الآخر في قوله: ﴿وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ٢٨٥﴾، أي: البعث والحساب والرجوع، فهذا فيه الإيمان باليوم الآخر، والقدر داخل في الإيمان بالله.

وهذه الآية مع الآية التي تليها وبهما ختمت سورة البقرة ورد في فضلهما نصوص، منها: ما جاء في الصَّحيح عن النبي ﷺ عن ابن عباس قال: (بينا جبريل قاعد عند رسول الله ﷺ إذ سمع نقيضًا من جهة السماء) يعني: جبريل سمع صوت من جهة السماء (فرفع رأسه وقال: هذا باب من السماء فُتح اليوم لم يُفتح قط قبل اليوم، ثم نزل من هذا الباب ملَك، وقال جبريل: هذا ملك نزل اليوم لم ينزل قط قبل اليوم) لاحظ الأمر باب من السماء يُفتح لأول مرة وملك من السماء ينزل لأول مرة، (فجاء هذا الملك إلىٰ النبي ﷺ وقال: أَبشِر بنوريْن أوتيتهما لم يؤتهما نبيٌّ قبلك: فاتحة الكتاب، وخواتيم سورة البقرة، وإنك لن تقرأ بحرف منهما ألَّا أوتيته)، فهذا يدل علىٰ عظم شأن هاتين الآيتين اللتين ختمت بهما سورة البقرة.

وكذلك جاء في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «**من قرأ بالآيتين من سورة البقرة في ليلة كفتاه**»، ما معنىٰ كفتاه؟ قوله: «**كفتاه**»: قيل في معناها أقوال:

فمن الأقوال التي قيلت فيها: أي: كفتاه من قيام الليل وهو قول ضعيف، ذكره بعض أهل العلم وهو

قول ضعيف.

وقيل: كفتاه من الشيطان وهذا مما يدخل في عموم الحديث.

وقيل: «كفتاه»: أي من كل شر، وهذا هو الأصل في معنىٰ الحديث، كفتاه من كل شر سواء شر الشيطان أو غير ذلك من الشرور التي يخشاها الإنسان ويخاف منها، هذا معنىٰ قوله: «من قرأ بالآيتين من سورة البقرة في ليلة كفتاه».

هنا لاحظ ترغيب في قراءة هاتين الآيتين كلَّ ليلة، وهذا يدلُّنا علىٰ عِظم قراءة هاتين الآيتين كلَّ ليلة، فيأتي هنا سؤال: ما الحكمة من قراءة هاتين الآيتين كلَّ ليلة؟

وهنا حكمة ظاهرةٌ فيما يتعلق بالآية الأولىٰ: ألا وهي أنَّك كل ليلة تستحضر أصول الإيمان، وهذا ممَّا يدلُّنا علىٰ عظم مقام الإيمان ورفيع شأنه، وأنك دائمًا ينبغي أن تجدد استحضاره واستذكاره ومدارسته وإيراده علىٰ ذهنك، فأنت كلَّ ليلة مرغَّب في أن تستحضر أصول الإيمان، كل ليلة تقول: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ٢٨٥﴾ هذا مع التدبُّر المطلوب منا عند قراءة القرآن نوعٌ من الاستذكار والاستحضار والمذاكرة والمدارسة لأصول الإيمان، وهذا يدلُّنا علىٰ فضل الإيمان وأهمية العناية به ومذاكرته.

ونظيرُ هذا ما يقال عند النوم في حديث البراء وهو من هذا القبيل، حديث البراء فيه أن تقول إذا أويت إلىٰ فراشك: «**اللَّهُمَّ إني أسلمت نفسي إليك، ووجهت وجهي إليك، وألجأت ظهري إليك، وفوضت أمري إليك، لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك، آمنتُ بكتابك الذي أنزلت وبنبيِّك الذي أرسلت**» هذا ما هو؟ هذا أيضًا استذكار لأصول الإيمان، قبل أن تنام وتغمض عينيك وأنت تستحضر أصول الإيمان، فتنام علىٰ الإيمان وغيرك ينام علىٰ هموم الدُّنيا، بينما أنت تنام وأنت تستحضر أصول الإيمان، تنام وأنت توحِّد الله وتذكر الله وتستحضر هذه الأصول العظيمة «**اللَّهُمَّ إني أسلمت نفسي إليك، ووجهت وجهي إليك، وألجأت ظهري إليك، وفوَّضت أمري إليك، لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك، آمنتُ بكتابك الذي أنزلت وبنبيك الذي أرسلت**».

ومن هذا القبيل: قراءة سورة ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾، قد ورد في حديث فروة بإسناد حسن «**وأنَّ مَن قرأها كانت براءة له من الشرك**»، فلما تنام وقد قرأت هذه السورة تنام علىٰ التوحيد واستحضار

التوحيد والإخلاص لله تبارك وتعالىٰ، ولذلك يُكتب براءة من الشرك، وحديث البراء من قرأه ومات من ليلته مات علىٰ ماذ؟! علىٰ الفطرة، والفطرة هي التوحيد والإخلاص لله تبارك وتعالىٰ.

وإذا نظرت كذلك إلىٰ بقية الأذكار تجد أنَّ فيها غرس الإيمان وغرس التَّوحيد وتأصيل العقيدة ومدارسة أمور الإيمان، والأمثلة علىٰ هذا كثيرة يطول الكلام عليها.

ثم الآية الثانية من الآيتين اللتين خُتمت بهما سورة البقرة فيها دعوات عظيمة يَحتاج إليها المسلم، فكم هو جميل بك كل ليلة أن تدعو بهذه الدعوات: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾ [البقرة]، فهذه دعوات عظيمة وقد جاء في الحديث الصحيح أن الله تبارك وتعالىٰ قال: «قد فعلتُ».

ومما جاء في القرآن في ذكر أصول الإيمان مجتمعة قول الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾﴾ [النساء]، وهذا أيضًا ممَّا يبيِّن أهمية هذه الأصول والأمر بالإيمان بها والعناية بها، وبيان خطورة من لم يؤمن بها وأنه كافر وأنه لا أضل منه، ولهذا قال: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾﴾ أي: هذا في غاية الضَّلال ومنتهىٰ الزَّيغ والبعد.

وهذه النصوص كلُّها تدلنا علىٰ أهمية الإيمان، وإذا طالعت آيات القرآن الكريم تمرُّ عليك هذه الأصول، يمر عليك الإيمان بالله وحده، ويمر عليك مضمومًا إليه الإيمان باليوم الآخر، ويمر عليك مرات وكرات الإيمان بالرسل والإيمان بالكتب، وهذا أعظم ما دعت إليه الرسل واتفقت عليه كلمتهم وأُنزل في كتب الله، وهو كما قدمنا أصول الإيمان التي عليها يُبنىٰ وعليها يُقام.

ثم هذه الأصول أهمُها وأعظمُها: الإيمان بالله، والإيمان بالله هو أصل أصول الإيمان، وبقية أصول الإيمان بمثابة الفرع لهذا الأصل وإليه ترجع، ولهذا لو تلاحظ الحديث تأتي بقية الأصول مضافة إلىٰ الأصل الأول الذي هو أصلها، في الحديث قال ماذا؟ «أخبرني عن الإيمان»، قال: «الإيمان: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله» مضافة إليه، فالإيمان بالله هو أصل أصول الإيمان، وأصول الإيمان ترجع

إليه، فأعظم أصول الإيمان وأهمها: هو الإيمان بالله تبارك وتعالىٰ.

وبإذن الله تبارك وتعالىٰ لقاؤنا القادم -إن يسّر الله- يكون فيه الحديث عن الإيمان بالله، وأيضًا إن يسر الله نواصل الحديث عن هذه الأصول، ونكتفي بهذا القدر، والله تعالىٰ أعلم، وصلىٰ الله وسلم علىٰ نبينا محمد.

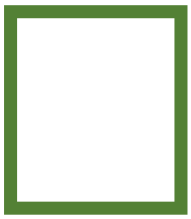

سالم
موقع التفريغ
للدروس العلمية والبحوث الشرعية
www.attafreegh.com

برنامج
دراسة متون
العقيدة
(المستوى الثالث)
@mton_aqeda3

مقدّمات

في دراسة التوحيد والإيمان

لفضيلة الشيخ

عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر

حفظه الله تعالى

النُّسخة الإلكترونيَّة (١)

من الدرس (٥) إلى الدرس (٦)

الشيخ لم يراجع التفريغ

بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس الخامس

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام علىٰ إمام المرسلين نبينا محمد وعلىٰ آله وأصحابه أجمعين وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد..

فقد بدأنا -أيها الإخوة الأكارم- ببعض المقدِّمات في دراسة الإيمان، وهي في تقديري مقدِّمات مهمَّة ينبغي علىٰ طالب العلم أن تكون منه علىٰ بال، وأن يكون علىٰ علم بها وهو يتعلَّم الإيمان ويدرُس مسائله.

وقد مرَّ معنا في الليالي الماضية شيء من المقدمات المهمة حول هذا الموضوع العظيم الذي هو أجلُّ الموضوعات وأعظمُها وأَولاها بالعناية والاهتمام، والله جل وعلا يقول: ﴿وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا﴾[البقرة:١٨٩]، ولا ريب أن باب الإيمان العظيم وتفاصيله المهمَّة ينبغي علىٰ طالب العلم أن يدخلها دخولًا صحيحًا مؤصَّلًا مبينًا علىٰ قواعد سليمة وأسسٍ متينة علىٰ ضوء كتاب الله وسنَّة نبيِّه ﷺ، وفي هذه الليلة نواصل ما بدأنا به في ذكر بعض المقدِّمات المهمَّة لدراسة الإيمان.

قد كنَّا عرفنا فيما سبق ما يتعلَّق بأهمية الإيمان وأنَّه أصلٌ عظيم وأساس متين يقوم عليه الدِّين، وعرفنا شيئًا من فضائله، وقليلًا من ثمراته المباركة وعوائده الحميدة علىٰ أهله في الدنيا والآخرة.

وعرفنا كذلك أهميةَ دراسة الإيمان؛ بل ضرورة دراسة الإيمان من خلال كلام الله تعالىٰ، وأحاديث الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه، وعَرضتُ لكم عرضًا مفيدًا لبعض الأحاديث التي ينبغي أن نعتني بها في دراسة الإيمان:

حديثَ سفيان.

وحديث جبريل.

وحديث أبي هريرة المعروف بحديث الشعب.

وحديث وفد عبد القيس.

وحديث أبي هريرة «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن**».

وذكرت لكم أنَّ هذه الانطلاقة المباركة والسير النَّافع في دراسة الإيمان علىٰ ضوء كلام الله وكلام

رسوله ﷺ يعود علىٰ صاحبه بالعوائد الحميدة والفوائد السديدة المبنيَّة علىٰ تأصيلٍ صحيح، وعلىٰ نورٍ من كلام الله وكلام رسوله عليه الصلاة والسلام، وهيهات ثم هيهات أن يُعرف الإيمان من غير كتاب الله وسنَّة نبيِّه ﷺ، وقد قال الله لرسوله عليه الصلاة والسلام: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٢﴾ [الشورىٰ]، والشاهد قوله: ﴿مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ﴾، فالإيمان والعلم بتفاصيله وما يتَّصل به ولوازمُه ومتعلقاته وأحكامه كلُّ ذلك سبيل العلم بها وطريقُ معرفتها: هو كتاب الله العزيز وسنَّةُ رسوله الكريم صلوات الله وسلامه عليه.

وإذا نظرتم في تاريخ سلفنا المجيد وسيرتهم المباركة ونهجهم السَّديد في دراسة الإيمان تجدون أنَّه بُني علىٰ هذا الأساس وأقيم علىٰ هذا المسلك بالتعويل علىٰ كتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام، وقد رأيتم مَثلا مباركًا في هدي ذلك الوفد المبارك وفد عبد القيس الذي جاء إلىٰ النبي ﷺ ليتعلَّم منه وليأخذ عنه وليطرح عليه سؤالاته في الإيمان وفي الدِّين؛ ليكون أخذ الدِّين عن كتاب الله وسنة نبيه صلوات الله وسلامه عليه.

فهذا الأمر الذي أشرتُ إليه فيما سبق وأعدت تلخيصًا له الآن هو حقيقةً أهمُّ ما ينبغي أن يكون علىٰ بال طالب العلم وهو يعتني بهذا الباب العظيم باب دراسة الإيمان.

وكان ممَّا مر علينا حديث جبريل، ومر معنا في آخر الحديث قول النبي ﷺ: «**هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم**» وهذه الكلمة من رسولنا صلوات الله وسلامه عليه تؤكِّد هذا المعنىٰ الذي ندور حوله وندندن عليه، يقول: «**أتاكم يعلِّمكم دينكم**»، فتعلُّم الدِّين يكون بهذه الطريقة: بسماع أقوال النبي عليه الصلاة والسلام، سماع إجاباته، سماع أسئلته والأسئلة التي تُطرَح عليه، سماع فتاواه، معرفة الدين من خلال هدي النبي عليه الصلاة والسلام.

وقد كان في زمانه تَفِد عليه الوفود ويأتيه الناس من هنا وهناك لطرح السؤالات وطرح الاستفتاءات ومعرفة دين الله تبارك وتعالىٰ عن الرسول الكريم ﷺ، وقد كان الصحابة رضي الله عنهم وأرضاهم يفرحون غاية الفرح عندما يقدم علىٰ النبي ﷺ قادمٌ ليسأله؛ لأنهم يجدون في السؤال والجواب ما يبيّن لهم الطريق القويم والمسلك المستقيم.

وقد كتب أحد النابهين من أبناء الشارقة رسالةً علمية نوقشت في الجامعة الإسلامية بعنوان: «فتاوىٰ

النبي ﷺ في العقيدة»، في مجلد كبير جمع فيها ما كان من هذا القبيل، مَن يأتي إلىٰ النبيِّ ﷺ ويسأله عن مسائل تتعلق بالاعتقاد، فكانت أحاديث كثيرة وسؤالات عديدة، وهي تتضمَّن فوائد كبيرة جدًّا في معرفة دين الله عزوجل ومعرفة الإيمان من خلال فتاوىٰ الرَّسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه، وهي أسئلة متنوِّعة منها ما يتعلَّق بالتوحيد، ومنها ما يتعلق بأمور الإيمان الأخرىٰ؛ كالإيمان بالملائكة والإيمان بالرسل والإيمان باليوم الآخر وغير ذلك، وكان الصحابة رضي الله عنهم يفرحون غاية الفرح عندما تُطرَح مثل هذه السؤالات علىٰ النبي عليه الصلاة والسلام.

ونحن كذلك ينبغي أن نغتبط ونفرح عندما نقف علىٰ هذه السؤالات وجوابها؛ لأن فيها بيان دين الله وتعليم الاعتقاد ومعرفة ما ينبغي للمسلم أن يتعلَّمه.

وكانوا علىٰ مستويات -مَن يطرحون هذه الأسئلة- منهم أعراب ومنهم غير ذلك، وهي في غاية ما يكون من الأهمِّية في دراسة الإيمان.

إضافة إلىٰ ما أشرتُ إليه من أحاديث النبيِّ الكريم صلوات الله وسلامه عليه العديدة التي تبيِّن الإيمان، فالذي يريد دراسة الإيمان يبني دراسته علىٰ مثل هذا المسلك الصحيح من خلال آيات كتاب الله العزيز وأحاديث النبيِّ الكريم ﷺ، وأهل العلم في القديم والحديث سهَّلوا علىٰ طلاب العلم المهمّة وهوّنوا عليهم السبيل، فأفردوا كُتبًا خاصَّةً بالإيمان جمعوا فيها الآيات والأحاديث الثابتة عن رسول الله ﷺ حتىٰ تكون قريبةَ المتناول سهلةَ الاطِّلاع في مكان واحد تقف عليها أو علىٰ كثيرٍ منها مجتمعةً، فتتعلَّم الإيمان من خلال كلام الله وكلام رسوله صلوات الله وسلامه عليه.

ثم إنني أنبّه هنا وقد مرَّ معنا حديثُ جبريل إلىٰ: تعلُّم الإيمان من خلال هذا الحديث، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «**هذا جبريل أتاكم يعلِّمكم دينكم**»، وجبريل جاء علىٰ صورة أعرابي مستفتٍ، علىٰ هيئة غريبة تعجّب الصحابة منها؛ لأنه جاء وثيابه بيضاء وشعره أسود وليس علىٰ بدنه ولا علىٰ ثيابه غبار، وليس عليه أثر المسافر، وهذا من أغرب ما يكون في زمانهم، وأما في زماننا فليس بغريب، فكان من أغرب ما يكون في زمانهم أن يوجد بينهم من ليس أهل البلد وممن لا يعرفونه ومع ذلك لا يظهر عليه أمارات السَّفر، يقول عمر رضي الله عنه: «**بينا نحن جلوس عند رسول الله ﷺ إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يُرىٰ عليه أثر السفر، ولا يعرفه منَّا أحد، حتىٰ إذا جلس إلىٰ النبي ﷺ أسند ركبتيه إلىٰ ركبتيه ووضع كفيه علىٰ فخذيه**»، هذا سائل وهو في الحقيقة معلِّم «**أتاكم يعلمكم دينكم**»،

ولاحظ هنا إذا أردت أن تتعلم الدِّين، فبين يدي تعلُّم الدِّين أدب ينبغي أن تتحلىٰ به وتتصف به، وكلما زاد فيك أدب تعلم الدين زاد حظُّك ونصيبُك من الدِّين، وليكن منك علىٰ بال قول النبي عليه الصلاة والسلام: «**هذا جبريل أتاكم يعلِّمكم دينكم**».

«**يعلمكم دينكم**»: من حيثُ أصولُه وفروعُه، ومن حيث أيضًا طريقة تعلُّمه وما ينبغي أن يتحلىٰ به مَن يتعلم الدِّين من آداب مباركة وأخلاق حميدة ومعاملات كريمة وأدب مع المعلِّمين، حتىٰ يكون له حظٌّ ونصيبٌ من العلم، ويكون بعيدا من الفظاظة والغِلظة والجفاء وسيّئ الأخلاق ورديئها، ويكون كذلك بعيدًا عن الملل والضجر وضيق العَطَن وقلة الصبر ونحو ذلك مما يقطع علىٰ الإنسان سيره ويعوقه في تحصيله.

فجبريل جاء إلىٰ النبي عليه الصلاة والسلام بهذه الهيئة وبهذه الصفة وبهذا الأدب الجم والخلق العظيم لنتعلَّم كيف يكون تعلُّمنا للدِّين، وكيف تكون دراستنا له، وكيف أنَّنا ينبغي أن نكون علىٰ حُسن خلق وجميل أدبٍ وحلية نتحلىٰ بها، ألا وهي حلية طالب العلم، وحلية طالب العلم: هي أدبه، خُلُقُه، جمالُ سلوكه، جمالُ آدابه، حسنُ معاملته، فهذه الأمور إذا عَظُم حظُّ طالب العلم منها عظم حظه من مسائل الدين ومن معرفة ما يتعلق به.

ثم بدأ يسأل والصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ يستمعون إلىٰ السؤال وإلىٰ الجواب، يستمعون بنهمة وعطش ورغبة شديدة في تحصيل الفائدة، قال: «أخبرني عن الإسلام»، ثم قال: «أخبرني عن الإيمان»، ثم قال: «أخبرني عن الإحسان»، ثم سأل عن أشراط الساعة، وفي كل ذلك يجيبه صلوات الله وسلامه عليه والصحابة رضي الله عليهم يستمعون ويتعلمون.

في الإسلام قال: «**أن تشهدَ ألا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وتقيمَ الصلاة، وتؤتيَ الزكاة، وتصومَ رمضان، وتحجَّ بيت الله الحرام**»، فذكر هذه المباني الخمسة للإسلام، وقد سماها عليه الصلاة والسلام مباني في حديث ابن عمر قال ﷺ: «**بني الإسلام علىٰ خمس: شهادةِ ألا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وإقامِ الصلاة، وإيتاءِ الزكاة، وصومِ رمضان، وحجِّ بيت الله الحرام**».

وانظروا فقه أئمتنا رحمهم الله عندما ألَّفوا في الأحكام، في «الصحيحين» والسنن وكتب الفقه، رتبوها علىٰ ترتيب هذه الأحاديث، الصلاة ثم الزكاة وهكذا، رتبوها علىٰ ترتيب هذه الأحاديث وبدؤوا يتوسعون في بيان التفاصيل المتعلقة بكل حكمٍ من هذه الأحكام، التفاصيل المتعلقة بالصلاة من شروط

وأركان وواجبات ومستحبات، ثم ما يتعلق بالزكاة، ثم ما يتعلق بالصيام، ثم ما يتعلق بالحج، وهكذا لأن هذه الأحديث هي البناء والركائز التي منها المُنطلَق وعليها المعوَّل في التأصيل والتأسيس. فأجابه بهذه المباني الخمسة، فلمّا سمع جبريل الجواب وسمعه الصحابة، قال جبريل: «صدقت»، وهذا عندهم من أغرب ما يكون، سائل يسأل ثم لما يجيب عليه الصلاة والسلام يقول للسائل: صدقت! فالصحابة تعجبوا، قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**فعجبنا له يسأله ويصدقه**»، يعني: يصدِّق أجوبته.

ثم سأل عن الإيمان، قال: «أخبرني عن الإيمان»، قال: «**أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وأن تؤمن بالقد خيره وشره**»، فعرَّف الإيمان بأصول الإيمان الستة، فقال جبريل: «صدقت»، قال: «**أخبرني عن الإحسان**»، قال: «**أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»، قال: «**أخبرني عن الساعة**»، قال: «**ما المسؤول عنها بأعلم من السائل**»، قال: «**فأخبرني عن أماراتها**»، قال: «**أن تلد الأمة ربتها، وأن ترىٰ الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان**»، ثم انطلق -ذهب السائل-، فلبثتُ مليًّا -يعني: انتظرتُ قليلًا-، فقال لي رسول الله ﷺ: «**يا عمر أتدري من السائل؟**» قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «**هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم**».

فهذا الحديث فيه تعليم للدين، وإذا جمعت بين ما خُتم به الحديث من قوله عليه الصلاة والسلام: «**هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم**» وبين ما ذُكر في الحديث من بيانٍ للإسلام والإيمان والإحسان تدرك من خلال ذلك: أن ديننا الدين الإسلامي الحنيف علىٰ مراتب ثلاث بُينت في الحديث:

- مرتبة الإسلام.
- ومرتبة الإيمان.
- ومرتبة الإحسان.

وبيْن هذه المراتب تفاضل، أعلىٰ هذه المراتب: مرتبة الإحسان، ثم يليها مرتبة الإيمان، ثم يلها مرتبة الإسلام، وأنت هنا عندما تعرف أنَّ في الحديث بيانًا لمراتب الدِّين، تتساءل عن كلِّ مرتبة ما هي؟ أو ما حدُّها؟ بمعنىٰ: مَن المُحسن؟ ومَن المؤمن؟ ومن المسلم؟ والله عَزَّوَجَلَّ ذكر الأقسام في القرآن كما في قوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [الأحزاب:٣٥]، وكما في قوله: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [فاطر:٣٢]، فالدِّين مراتب، وأهله ليسوا فيه علىٰ درجة واحدة، ولهذا فإن من فوائد حديث جبريل

العظيمة: أنَّه يدلُّ علىٰ زيادة الإيمان ونقصانه، وعلىٰ تفاضل أهله فيه، وأنَّ أهله ليسوا علىٰ درجة واحدة؛ بل متفاضلون، منهم من هو في مرتبة الإحسان وهي الرُّتبة العلية، ومنهم من هو في مرتبة الإيمان وهي دون مرتبة الإحسان، ومنهم من هو في مرتبة الإسلام وليس بعد الإسلام إلا الكفر.

وقد شبّه أحد العلماء المتقدِّمين هذه المراتب الثلاثة بدوائر ثلاثة، دوّر ثلاث دوائر، كل دائرة أكبر من الأخرىٰ وتحيط بها، فجعل الدائرة الصُّغرىٰ دائرة الإحسان، ثم الدَّائرة التي هي أوسع منها دائرة الإيمان، ثم الدَّائرة التي أوسع منهما دائرة الإسلام، بمعنىٰ أنَّ من يدخل الدِّين أوَّل ما يدخله يكون في أدنىٰ رُتَبِه وهي رتبة الإسلام، فإذا تمكّن الإيمان من قلبه وتمكَّن الدِّين عنده يرتفع منها ويعتلي إلىٰ درجة الإيمان، قال الله تعالىٰ: ﴿قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ﴾ [الحجرات:١٤] ادّعوا رتبة ما وصلوها ﴿قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ﴾ فماذا كان الجواب؟ ﴿قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا﴾، فالدين رُتَب ﴿قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا﴾، متىٰ يصل درجة الإيمان؟ قال: ﴿وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ﴾، هذا يوضح ما بين هاتين الرُّتبتين من تفاوت، رتبة الإسلام ورتبة الإيمان، وفي «الصحيحين» من حديث سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: أعطىٰ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عطاءً، أعطىٰ أناسًا- وترك شخصًا كان أعجبهم إليّ، فقلت: يا رسول الله؛ لم تعطِ فلانًا وإني لأراه مؤمنًا، فقال عليه الصلاة والسلام: «أو مسلمًا»، قال: فسكتُّ، ثم أدركتني شفقة عليه فقلت: يا رسول الله؛ لم تعطِ فلانًا وإني لأراه مؤمنًا، فقال: «أو مسلمًا» وهذا فيه تنبيه من النبي عليه الصلاة والسلام إلىٰ الفرق بين هاتين الرتبتين، رتبة الإسلام ورتبة الإيمان، كذلك الآية التي قرأتها عليكم من سورة الأحزاب: ﴿إِنَّ ٱلۡمُسۡلِمِينَ وَٱلۡمُسۡلِمَٰتِ وَٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾[الأحزاب:٣٥]، فيها دلالة علىٰ الفرق بين هاتين الرتبتين.

فمن دخل في هذا الدِّين يكون في رتبة الإسلام، فإن تمكّن الإيمان منه ارتقىٰ إلىٰ درجة الإيمان، فإذا زاد في إتقانه وإجادته وإحسانه في عبادة الله ارتقىٰ إلىٰ درجة الإحسان.

ومن خرج من دائرة الإحسان يخرج منها إلىٰ الإيمان، ومن خرج من دائرة الإيمان يخرج منها إلىٰ الإسلام، ومن خرج من الإسلام فما بعد الإسلام إلا الكفر، وهذا الذي ذكرتُ لكم يوضح لكم قول أهل العلم: "**كلُّ محسنٍ مؤمنٌ مسلمٌ، وكلُّ مؤمنٍ مسلمٌ وليس كلُّ مسلمٍ مؤمنًا، وليس كل مؤمن محسنًا**"؛ لأنها درجات ورُتب، فمن كان في رتبة الإحسان وهي الرُّتبة العليَّة فهو داخل في رتبة الإيمان ورتبة الإسلام، ومن كان في رتبة الإيمان فهو داخل في رتبة الإسلام لأن كل مؤمن مسلم، وليس

العكس.

وهنا يأتي التَّساؤل الذي طرحته قبل قليل: **من المسلم؟ ومن المؤمن؟ ومن المحسن؟**

الجواب علىٰ هذا السؤال في الحديث نفسه، النبي عليه الصلاة والسلام بما عرّف الإسلام في حديث جبريل؟ قال: «**الإسلام: أن تشهد ألا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج بيت الله الحرام**»، هذا هو الإسلام، انظر هذا الحديث مع قوله عليه الصلاة والسلام في الحديث الآخر: «من استقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا فهو المسلم، له ما لنا وعليه ما علينا».

إذن من هو المسلم؟ من يجيب علىٰ هذا السؤال؟ المسلم: من أتىٰ بأعمال الإسلام الظاهرة.

ولاحِظ هنا عندما نقول: من المسلم؟ إما أن نكون نقصد به من المسلم عندنا نحن، من الذي يُحكم عليه بالإسلام؟ فالذي يُحكم عليه بالإسلام هو من أتىٰ بهذه الأعمال الظاهرة، يشهد ألا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، من صلىٰ صلاتنا، واستقبل قبلتنا فهو المسلم له ما لنا وعليه ما علينا؛ لأن لنا الظاهر، فمن أتىٰ وأظهر الإسلام فهو عندنا مسلم ويعامل معاملة المسلم؛ لأن لنا الظاهر، والله تبارك وتعالىٰ يتولَّىٰ السرائر.

ومن المسلم عند الله؟ هل يكفي أن نقول: المسلم هو من أتىٰ بأعمال الإسلام الظاهرة؟ الإتيان بأعمال الإسلام الظاهرة حصرًا مَن ليسوا بمسلمين، قال الله تعالىٰ عن أهل النفاق: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۘ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾﴾ [المنافقون].

فمن أتىٰ بأعمال الإسلام الظاهرة دون شيء في الباطل لا يكون بذلك مسلمًا وإن كان يكون عندنا نحن مسلمًا؛ لأنَّ لنا الظاهر، والله يتولَّىٰ السرائر، لكن من المسلم عند الله؟ الذي يأتي بأعمال الإسلام الظاهرة، وماذا؟ وعنده من الإيمان ما يصحِّح إسلامه، لأنه إذا لم يوجد عنده من الإيمان ما يصحِّح إسلامه لا ينتفع بأعماله الظاهرة كلِّها، ولا يستفيد منها جميعِها، ولهذا قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٥﴾﴾[المائدة]، وقال تعالىٰ: ﴿ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ﴾[التوبة:٥٤]، فإذن: المسلم من أتىٰ بالعمل الظاهر وعنده من الإيمان ما يصحح إسلامه، ليس عنده تمكُّن في الإيمان وإنما عنده من الإيمان ما يصحح إسلامه، انظر الآية قال تعالىٰ: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ﴾، فإذن: هذا هو المسلم، المسلم من جاء بالعمل الظاهر شهد ألا إله إلا الله وأقام الصلاة، التزم

أعمال الإسلام الظاهرة وعنده من الإيمان ما يصحح إسلامه، فإذا تمكّن الإيمان من قلبه ورسخ في نفسه فإنه يرتقي عندئذ إلىٰ درجة الإيمان، فإذا ارتقىٰ في الإيمان وعلا شأنه فيه وبلغ أمره في عبادته لربه أنه يعبد الله كأنه يراه من كمال اتقانه وكما إجادته وكمال إحسانه في عبادته لربه فإنه يكون في درجة الإحسان الذين قال الله عنهم: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ١٢٨ ﴾[النحل]، فهم لهم معيَّة خاصة لا تكون لغيرهم.

فهذه هي الرتب الثلاثة لأهل الدِّين: رتبة الإسلام، ورتبة الإيمان، ورتبة الإحسان.

ثم من يتعلَّم ذلك من هذا الحديث يبدأ في مجاهدةٍ لنفسه واستعانةٍ بربِّه ليرتقي في هذه الدرجات وليعتلي في هذه المنازل، والتوفيق بيد الله تبارك وتعالىٰ، ﴿وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٍ ٢١٣﴾ [البقرة]، ولذلك قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ٧ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ﴾[الحجرات].

أحد السلف وهو الحسن البصري سُئل سؤالًا عن الإيمان وأجاب عنه جوابًا يفيدنا كثيرًا فيما تحدَّثنا عنه، قال له رجل: "أمؤمن أنت؟ **قال: الإيمان إيمانان:**

فإن كنتَ تسألني عمّن قال الله فيهم: ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٣ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ ﴾[الأنفال] فأرجو؛ يعني: أرجو أن أكون منهم.

وإن كنتَ تسألني عن الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فأنا مؤمن".

لكن إن تسأل عن الإيمان الكامل والإيمان التام فأرجو، وهذا منه رَحِمَهُ ٱللَّهُ عملًا بقوله تبارك وتعالىٰ: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ٣٢﴾ [النجم]، وهذه المسألة تعرف عند أهل العلم بالاستثناء في الإيمان، من سئل عن الإيمان: أمؤمن أنت؟ لا يزكِّي نفسه، وإنما يستثني يقول: أرجو، أو أنا مؤمن إن شاء الله؛ لأن الإيمان يشمل الدِّين كله، ومن الذي يدّعي لنفسه أنه كمّل الدِّين؟! والإيمان هو المُتقبَّل عند الله، ومن الذي يدعي لنفسه أن أعماله متقبلة؟! فيستثني لا شكًّا في أصل إيمانه وإنما بُعدًا عن التَّزكية، وعلمًا منه بعدم الوفاء والتَّمام والكمال في الإتيان بأمور الإيمان ومسائله.

والحديث له صلة، نكتفي بهذا القدر، والله تعالىٰ أعلم، وصلىٰ الله وسلم علىٰ نبينا محمد وآله وأصحابه أجمعين.

بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس السادس

.... المقدِّمات المهمَّة التي ينبغي أن يعتني بها طالب العلم وهو يدرس الإيمان، الإيمان الذي هو أعظمُ العلوم وأشرفها وأجلها علىٰ الإطلاق، والله جل وعلا يقول: ﴿وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا﴾ [البقرة:١٨٩].

فطالب العلم ينبغي أن يكون في تعلُّمه للإيمان وطلبه له أن يسير سيرًا صحيحًا وأن يسلك نهجًا سديدًا علىٰ ضوء ما جاء في كتاب الله العزيز وسنة نبيه ﷺ.

وقد عرَفنا -أيها الإخوة- بعض المقدِّمات المهمَّة وشيئًا يسيرًا من البدايات التي ينبغي أن يعتني بها طالب العلم في هذا الباب، وكان آخر حديثنا في هذا الباب عن حديث جبريل العظيم، وأنَّ هذا الحديث يُعطي طالب العلم منهجيَّةً رصينةً في طريقة الطلب وفي حقيقة ما يُطلَب ويحصَّل، ورأينا تلك السُّؤالات العظيمة التي طرحها جبريل عليه السلام علىٰ نبيِّنا ﷺ قاصدًا بها تعليم النَّاس دينهم كما هو منصوصُ النبي ﷺ في آخر الحديث وتمامه.

ومن جملة ما قد وقفنا عليه في هذا الحديث العظيم المبارك: بيان النبي ﷺ لمراتب الدين، وأن الدين علىٰ ثلاثة مراتب وهي:

- الإسلام -ومر في الحديث بيانه.
- والإيمان -ومر في الحديث بيانه.
- والإحسان -ومر في الحديث بيانه.

وسبق الكلام علىٰ هذه الرتب الثلاث، وبما يكون المرءُ مسلمًا؟ وبما يكون مؤمنًا؟ وبما يكون محسنًا؟

ولم يَتمّ حديثنا في هذا الموضوع، سنواصل الكلام علىٰ ما يتعلَّق بالإسلام والإيمان وبيان الفرق بينهما علىٰ ضوء ما جاء في حديث جبريل عليه السلام، والأحاديث الأخرىٰ والآيات الواردة في هذا الموضوع، وإن كان قد مر معنا طرفًا أو جانبًا من هذا الموضوع، أعني الفرق بين الإسلام والإيمان.

والإسلام والإيمان قد عُرِّف كل منهما في حديث جبريل، فقد عرّف النبيُّ ﷺ الإسلام في الحديث بالأعمال الظَّاهرة، وعرّف الإيمان بالاعتقادات الباطنة، لكنَّنا هنا ينبغي أن نلاحظ والحديث ماضٍ بنا في الكلام عن الفرق بين الإسلام والإيمان، أن نلاحظ ورود الإسلام والإيمان في النصوص نصوص

الكتاب والسنة، لأن الإسلام قد يأتي في بعض النصوص مُفردًا غير مقرونٍ معه ذكر الإيمان، وأحيانًا يأتي ذِكر الإيمان مفردًا ليس مضمومًا معه ذكر الإسلام، وأحيانًا يأتي الإيمان والإسلام معًا في نصٍّ واحد، وهذا ينبغي أن يُلاحظ في الكلام علىٰ الفرق بين الإسلام والإيمان حال الاقتران وحال الافتراق، ذلك أنَّ الإسلام إذا ذُكر مفردًا فإنه يشمل الدِّين كله، وكذلك الإيمان إذا ذُكر مفردًا فإنه يشمل الدِّين كلَّه، الإسلام إذا أُطلق شمل الدِّين كله أصوله وفروعه، والإيمان كذلك إذا أُطلق أو أفرد يشمل الدِّين كله أصوله وفروعه، وإذا ذُكر مضمومًا إلىٰ الإيمان، أي: ذُكر الإسلام والإيمان معًا في نصٍّ واحد كحديث جبريل، وكقوله تعالىٰ: ﴿قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا﴾ [الحجرات:١٤]، وكقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلۡمُسۡلِمِينَ وَٱلۡمُسۡلِمَٰتِ وَٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾[الأحزاب:٣٥]، ونظائر ذلك مما جاء في كتاب الله وسنة نبيه ﷺ.

فهنا ينبغي أن يُلاحَظ عند التعريف ورود الإيمان والإسلام مجتمعَيْن، وفي هذا يذكر أهل العلم قاعدة مفيدة في هذين الاسمين الإسلام والإيمان وفي غيرهما أيضًا من الأسامي التي سأشير إلىٰ شيءٍ منها، والقاعدة هي: **"أن هذه الأسماء من شأنها أنها إذا اجتمعت افترقت، وإذا افترقت اجتمعت"**، وهذه قاعدة مهمة في هذا الباب، ما معنىٰ هذا؟ أي: أن الإسلام والإيمان من شأنهما أنهما إذا اجتمعا في الذكر، اجتمعا أي: في نص واحد، في آية واحدة أو حديث واحد أو موضع واحد افترقا: أي: في المعنىٰ، فيكون للإسلام معنًىٰ خاص، ويكون للإيمان معنًىٰ خاص، وإذا افترقا: أي: في الذكر، بأن يكون كل واحد منهما ذُكر بمفرده، اجتمعا في المعنىٰ.

أيضًا توضيح لهذا: الإسلام والإيمان قد يجتمعان وقد يفترقان، أي في النصوص في ورودهما في النصوص، فقد يجتمعان أي: يذكر الإسلام والإيمان معًا مجتمعين في آية أو في حديث، فهنا يقال: اجتمعا، أي: في الذكر ذُكرا معًا، ففي حال اجتماعهما يكون للإسلام معنىٰ ويكون للإيمان معنىٰ.

وأحسن ما يبين لك الفرق بينهما حالَ الاجتماع حديثُ جبريل، فلاحظ حديث جبريل اجتمع فيه الإسلام والإيمان، فبماذا فسر عليه الصلاة والسلام الإسلام؟ وبماذا فسر الإيمان؟

فسر الإسلام بالأعمال الظاهرة.

وفسر الإيمان بالاعتقادات الباطنة.

لاحظ معي مرة ثانية الدين قسمان: اعتقادات باطنة وأعمال ظاهرة.

اعتقادات باطنة في القلب، وأعمال ظاهرة تكون علىٰ الجوارح واللسان، فعندما يذكر الإيمان والإسلام معًا، يختص الإسلام بالأعمال الظاهرة ويختص الإيمان بالاعتقادات الباطنة، علىٰ ضوء تبيين النبي ﷺ لذلك في حديث جبريل، حيث لما سأله عن الإسلام فسّره بالشهادتين والصلاة والصيام والزَّكاة والحج، وهذه كلُّها أعمال ظاهرة، وعندما سأله عن الإيمان فسَّره بالإيمان بالله والملائكة والكتب والرُّسل واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره، وهذه كلُّها اعتقادات باطنة، فإذن الإسلام والإيمان عندما يذكران معًا يكون الإسلام مختصًّا بالأعمال الظَّاهرة، ويكون الإيمان مختصًّا بالاعتقادات الباطنة.

وفي هذا أيضًا قاعدة أخرىٰ نظير القاعدة المتقدِّمة في توضيح هذا الباب ذكرَها أهل العلم: وهي قولهم: **"إن من الأسماء ما يكون شاملًا لمسمَّيات متعددة عند إفراده وإطلاقه، فإذا قُرِن ذلك الاسم بغيره صار دالًّا علىٰ بعض تلك المسمَّيات، والاسم المقرون به دالٌّ علىٰ باقيها"**، وأحسب أن هذه القاعدة واضحة لديكم تمامًا علىٰ ضوء ما ذكرته آنفًا، وتأملوا معي: "إن من الأسماء ما يكون شاملًا لمسميات متعددة عند إفراده وإطلاقه"، يعني: عندما يُذكر مفردًا وحده، مثل: الإيمان، الإيمان إذا أفرد وأطلق ماذا يشمل؟ الاعتقادات الباطنة والأعمال الظاهرة، "فإذا قُرن ذلك الاسم بغيره"، أي: قرن اسم الإيمان باسم الإسلام "صار ذلك الاسم دالًّا علىٰ بعض تلك المسمَّيات"، ما البعض الذي يدلُّ عليه الإيمان حال اقترانه بالإسلام؟ الاعتقادات الباطنة، "والاسم المقرون به دالٌّ علىٰ باقيها" الاسم المقرون به هو الإسلام دالٌّ علىٰ باقيها، والذي بقي هو الأعمال الظاهرة.

مثل هذا: الفقير والمسكين، البر والتقوىٰ، وأسماء كثيرة شرعية تنطبق عليها هذه القاعدة أنها عندما تجتمع في الذِّكر تفترق في المعنىٰ، وعندما تفترق في الذِّكر تجتمع في المعنىٰ.

الآن تأمَّل معي بعض الأدلة، فهمنا ما سبق ونريد ننظر في بعض الأدلة لنعرف علىٰ ضوئها كيف نعرِّف الإسلام والإيمان.

عندما تقرأ قول الله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ ﴾ [آل عمران: ١٩]، وقول الله: ﴿ وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ ﴾ [آل عمران:٨٥]، ما الإسلام هنا؟ الأعمال الظاهرة فقط؟ الإسلام هو الدِّين كلّه بأعماله الظَّاهرة وعقائده الباطنة، ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ ﴾، ﴿ وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ ﴾.

عندما تقرأ قول الله تعالىٰ: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝١﴾ [المؤمنون]، وقول الله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾ [الأنفال:٢]، ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الحجرات:١٥]، ونظائر هذه الآيات، ما المراد بالإيمان هنا؟ الدين كله باعتقاداته الباطنة وأعماله الظاهرة.

فإذا جئت إلىٰ نص جُمِعا معًا كقوله: ﴿إِنَّ ٱلۡمُسۡلِمِينَ وَٱلۡمُسۡلِمَٰتِ وَٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ [الأحزاب:٣٥]، وقوله: ﴿قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا﴾ [الحجرات:١٤]، وحديث سعد -الذي مر معنا في الليلة البارحة- قال: «إني لأراه مؤمنًا، فقال: أَوْ مسلمًا»، مما يدل علىٰ أن ثَمّة فرق بينهما، فيكون الإسلام: الأعمال الظاهرة، والإيمان: الاعتقادات الباطنة.

ثم لما نأتي عقب هذا لنعرِّف من المسلم ومن المؤمن؟ فالأمر واضح علىٰ ضوء ما تقدم، وعلىٰ ضوء ما بيناه في لقائنا الماضي، عرَفنا أنَّ الإسلام والإيمان وعندما يُسأل من المؤمن ومن المسلم؟ يعني من في درجة الإسلام ومن في درجة الإيمان؟ عرفنا علىٰ ضوء حديث جبريل أن الإسلام هو الأعمال الظاهرة، ولكننا أيضًا في الوقت نفسه عرَفنا أن الأعمال الظاهرة وحدها بدون شيء من الاعتقاد الباطن لا تنفع، فمن المسلم؟ -عرّفناه بالأمس- المسلم: هو من جاء بأعمال الإسلام الظَّاهرة وعنده من الإيمان ما يصحِّح إسلامه، أما إذا لم يكن عنده شيء من الإيمان يصحح إسلامه فهذا منافق لا يقبل الله عَزَّوَجَلَّ منه صرفًا ولا عدلًا؛ لأن الناس من حيث الإيمان وعدمه ثلاثة أقسام:

قسم أهل الإيمان حقًّا وصدقًا وهم المؤمنين في الظاهر والباطن في القلب والقالَب.

والقسم الثاني: هم من عندهم إيمان في الظاهر وليس عندهم إيمان في الباطن.

والقسم الثالث: ليس عندهم إيمان لا في الظاهر ولا في الباطن.

وقد ذكر الله عَزَّوَجَلَّ هذه الأقسام الثلاثة وبيّنها في أول سورة البقرة، فذكر أولًا أهل الإيمان، ثم ذكر المنافقين، ثم ذكر الكفار الذين ليس عندهم لا إيمان في الظاهر ولا إيمان في الباطن.

ومثل هذه النصوص يستفاد منها فوائد عظيمة في تعريف الإيمان -الآيات التي تبيِّن أحوال الناس مع الإيمان وجودًا وعدمًا- يُستفاد منها فوائد عظيمة، ولهذا شيخ الإسلام ابن تيمية في مقدِّمة كتابه «الإيمان» أطال في عرض كثير من الآيات التي من هذا القبيل في بيان أحوال الناس مع الإيمان، وأنَّ المؤمن هو من آمن بالله ظاهرًا وباطنًا، جوارحه صلحت بطاعة الله وباطنه زكَىٰ بالإيمان بالله عَزَّوَجَلَّ وبكل

ما أمره تبارك وتعالىٰ بالإيمان به، وانظر هذا جليًّا في قوله تعالىٰ في وصف المؤمنين في أول سورة البقرة: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥﴾، فوصف هؤلاء المؤمنين بصلاح الباطن والظاهر، الباطن بالاعتقادات الصحيحة والإيمان السليم، والظاهر بصلاح الأعمال من صلاة وزكاة ونحو ذلك من الطاعات المقرِّبة إلىٰ الله جل وعلا.

ومن النصوص التي ذُكر فيها الإيمان مفردًا فيكون شاملًا للدين كله، وهو يبيِّن ما بدأنا بالكلام عليه: حديث الشُعَب، -وقد أشرتُ إليه فيما سبق- وهو في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وفيه يقول ﷺ: «الإيمان بضعٌ وسبعون شعبة، أعلاها: قول: لا إله إلا الله، وأدناها: إماطة الأذىٰ عن الطريق، والحياء شعبة من شعب الإيمان»، وهذا الحديث جليلُ القدر، عظيم الفائدة، كبير النفع، حظي بعناية واسعة واهتمام بالغ من أهل العلم؛ بل إن من أهل العلم من أفرد هذا الحديث في مجلدات كما صنع البيهقي كتب في هذا الحديث سبع مجلدات، وغيره من أهل العلم، وكانت اهتمامات العلماء بهذا الحديث واسعة جدًّا، من جهات عديدة، من هذه الجهات؛ -حتىٰ نُدرك دأب أهل العلم وصبرهم في دراسة السنة ومعرفة الإيمان من خلال أحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام-، عندما قال ﷺ: «**الإيمان بضعٌ وسبعون شعبة**» أوضح إيضاحًا جليًّا وبيّن بيانًا تامًّا أن الإيمان فيه شعب، له أجزاء، له أفراد، له أنواع، ليس الإيمان منحصر في جانب، ليس الإيمان مختصًّا فيما يقوم بالقلب، ولا الإيمان مختصًّا بما يكون علىٰ اللِّسان، ولا أيضًا مختصًّا بما يكون علىٰ الجوارح؛ بل الإيمان يتناول ما يكون بالقلب وما يكون باللِّسان وما يكون بالجوارح، وذكر لنا عليه الصلاة والسلام في هذا الحديث المختصر في ألفاظه الجامع في معانيه ودلالاته ذكر لنا ﷺ شيء مما يتعلق بالقلب، وشيء مما يتعلق باللسان، وشيء مما يكون بالجوارح؛ حتىٰ نعرِف شمول الإيمان وتعدد شعبه وتنوع جوانبه وأجزائه، قال: «**أعلاها: قول: لا إله الله، وأدناها: إماطة الأذىٰ عن الطريق، والحياء شعبة من شعب الإيمان الحياء**»، الحياء مكانه القلب، إماطة الأذىٰ عن الطريق فعل بالجوارح، قول لا إله إلا الله نطق باللسان وعقيدة في القلب، إذن: الإيمان يشمل جوانب، يشمل أشياء تكون منّا بألسنتنا، وأشياء تكون منّا بجوارحنا، ويشمل عقائد تكون في قلوبنا، يتناول ذلك كلَّه، وهذا واضح في قوله عليه الصلاة والسلام: «**الإيمان بضع وسبعون شعبة**»، ثم يقول: «**أعلاها: قول: لا إله الله، وأدناها: إماطة الأذىٰ عن الطريق**»،

لنعرِف أن هذه الشعب والأجزاء للإيمان ليست علىٰ مستوىٰ واحد، ولا علىٰ مرتبة واحدة، بل لها أعلىٰ ولها أدنىٰ، وأعلىٰ شيء في الإيمان: لا إله إلا الله، وهذا أيضًا يدلُّنا علىٰ فضل كلمة التوحيد لا إله إلا الله، وأنها أعلىٰ شيء في الإيمان، «**أعلاها: قول: لا إله الله**» فهي الرتبة العلية والدرجة المُنِيفَة والمنزلة الرفيعة، أعلىٰ شيء في الدين قول لا إله إلا الله، ثم أمور الدِّين تأتي دون ذلك، «**وأدناها: إماطة الأذىٰ عن الطريق**»، بين هاتين الشعبتين ماذا يوجد؟ شعبة لا إله إلا الله التي هي أعلىٰ الشعب وشعبة إماطة الأذىٰ عن الطريق التي هي أدنىٰ الشعب بين هاتين الشعبتين ماذا يوجد؟ شعب كثيرة، منها ما هو أقرب للأعلىٰ، ومنها ما هو أقرب للأدنىٰ، وتمضي هذه الشعب متفاوتة ليست علىٰ مستوىٰ واحد.

وهذا الحديث من الدلائل البيّنة علىٰ أن الإيمان يزيد وينقص، وأن أهله يتفاضلون فيه، أليس يعلم كلُّ الناس أو كلُّ من عرف هذا الدِّين تفاوت أهله في قيامهم بهذه الشعب؟ وهل أهل الإسلام في قيامهم بهذه الشُّعب علىٰ مستوىٰ واحد؟ بل أنت أيها المسلم هل أنت مستواك مع هذه الشُّعب في أيامك وفي أوقاتك وأحايينك علىٰ مستوىٰ واحد؟ أم أنَّك تراك تارة تزيد فيها وتارة تنقُص؟! هذا أبين ما يكون في حسِّك وواقعك أن الإيمان يزيد وينقص، وأنك أنت تتفاضل فيه تارة يزيد عندك وتارة ينقص.

ولهذا قال الصحابي عمير بن حبيب الخَطْمي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: "الإيمان يزيد وينقص، قال: وما زيادته ونقصانه؟ قال: إذا ذكرنا الله وسبّحناه وحمدناه زاد، وإذا غفلنا نقص"، فالإيمان يزيد وينقص، وهذا يحس به كل أحد من نفسه، ولا ينفي عن الإيمان الزيادة والنقصان إلا مكابر معاند، وإلا زيادة الإيمان ونقصانه واضحة في الأدلة في الكتاب العزيز وسنة النبيِّ ﷺ والعقل يشهد لها والحس يشهد لها، والله جل وعلا يقول: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ١٢٤﴾ [التوبة]، ويقول تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ﴾[الأنفال:٢]، والآيات في هذا المعنىٰ كثيرة، أيضًا قوله تعالىٰ: ﴿وَيَزِيدُهُمۡ خُشُوعٗا۩ ١٠٩﴾ [الإسراء]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ ١٧﴾ [محمد]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ هُدٗىۗ﴾ [مريم:٧٦]، والآيات في هذا المعنىٰ كثيرة جدًّا، فالإيمان يزيد وينقص.

ومن دلائل نقصانه الصريحة قول النبي ﷺ: «**المؤمن القوي خير وأحب إلىٰ الله من المؤمن ضعيف، وفي كلٍّ خير**»، وقوله ﷺ عندما ذكر أهل بعض المنكرات: «**فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهده**

بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وذلك أضعف الإيمان»، أو قال: «**وليس وراء ذلك حبة خردل من إيمان»**، وفي الحديث الآخر قال: «**من رأىٰ منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان**» ففيه الإيمان الأضعف، وفيه الأعلىٰ، وأيضًا ما ذكره عليه الصلاة والسلام عن النساء عندما قال: «**ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم منكن**».

ومن الطرائف التي يحسُن ذكرها في هذا المقام: أن بعض النساء ربما تنزعج من هذا الحديث، من قوله عليه الصلاة والسلام: «**ما رأيت من ناقصات عقل ودين**» وهذا في الغالب لا يحدث هذا الانزعاج من المرأة المتدينة المطمئنة الواثقة بكلام الرسول عليه الصلاة والسلام المنشرحة الصدر بما جاء عنه ﷺ، لا يصدر مثل هذا ممن اطمأنّ قلبُها بالإيمان وانشرح صدرها لكلام الرسول عليه الصلاة والسلام؛ لأن من كان هذا شانه منشرح الصدر ويعلم من القائل ومن المتكلم بهذا الكلام وأنه عليه الصلاة والسلام لا ينطق عن الهوىٰ، علىٰ أن هذه الحديث لا مذمة فيه للمرأة؛ لأن قوله: «ما رأيت من ناقصات عقل ودين» نقص الدين الذي يكون عند المرأة: تركها للصيام والصلاة وقت حيضها، وهذا نقص في الدين لكنها ليست محاسبة عليه، هو نقص في الدين من حيث مقارنتها بالرجل الذي لا ينقطع عن الصلوات وعن الصيام في كل أوقاته، وهذا النقص هي ليست محاسبة عليه؛ لأنها مأمورة به،

فقلت: إن مثل هذا الكلام لا يصدر من امرأة مطمئنة منشرحة الصدر واثقة بما جاء عن الرسول عليه الصلاة والسلام، لكن بعض من يتفلتن ويَمِلْن إلىٰ بعض المخالفات أو أيضًا أو من يقعن في التبرج والسفور ونحو ذلك يكون في قلوبهن شيء من الوحشة من أحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام الزاجرة للمرأة عن المخالفة، مثل نهي المرأة عن أن تخرج متعطِّرة، ومثل أمره لها بأن تخرج متحجبة ومتسترة، ومثل أيضًا نهيها عن الاختلاط، فبعضُهن تتضجر وتتململ من هذه الأوامر، وتظن أن هذا نوع من التضييق عليها والتحجير، بينما في حقيقة الحال وهذا تُدركه كل امرأة عاقلة حصيفة مؤمنة مطمئنة، هذا في حقيقة الحال صيانة لها وحفظ لكرامتها وحفظ لعفَّتها، وبعد لها أن تكون أداة فساد ووسيلة هدم في المجتمعات.

فمرّة بعض النِّساء المتفلتات قلن لأحد أهل العلم معترضات قلن له: إنَّ النبي ﷺ يقول: «**ما رأيت من ناقصات عقل ودين**» كيف يكون هذا؟ كيف يقال في المرأة هذا؟!! هذا مو صحيح! كيف يقول في

المرأة أنها ناقصة عقل ودين؟

فقال: إن النبي ﷺ لما قال: النساء ناقصات عقل ودين ما قصدكن بهذا الكلام، وما أرادكن بهذا الكلام، لما قال: «النساء ناقصات عقل ودين» أراد نساء الصحابة، أما أنتن فلا عقل ولا دين!!! قصد نساء الصحابة، يعني المرأة الفاضلة المتقية لله، العاملة بطاعة الله، هذه هي المقصودة، والنَّقص الذي عندها هي ليست مُلامَة عليه ولا محاسبة عليه، أما المرأة الجريئة التي تتجرَّأ علىٰ دين الله وعلىٰ كلام الله وعلىٰ كلام رسول الله ﷺ، وبكل وقاحة تعترض وتنتقد! أين الدِّين الزاجر؟ وأين الفهم أين الوعي؟ أين معرفتها بكلام الله ورسوله؟ ومن الذي يجرؤ علىٰ أن ينتقد أو يعترض علىٰ كلام الله وكلام رسوله ﷺ، والله تعالىٰ يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ﴾ [الحجرات:١]؟!!

علىٰ كلِّ حال من الأدلة التي مرت معنا علىٰ نقص الإيمان: قوله ﷺ: «**ما رأيت من ناقصات عقل ودين**»، والأدلة علىٰ نقص الإيمان كثيرةٌ، وكلها قد أوردتها تاكيدًا للمعنىٰ الذي استفدناه من حديث الشعب، وأنه من الدلائل التي ذكرها أهل العلم علىٰ أن الإيمان يزيد وينقُص؛ لأن الإيمان له شعب، والناس في شعبه يتفاوتون، ليسوا فيه علىٰ درجة واحدة.

ذكرت لكم عناية أهل العلم بهذا الحديث العظيم، فاسمعوا شيئًا من عنايته حتىٰ تعرفوا اهتمام أهل العلم وطريقتهم في دراسة الإيمان من خلال أحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام.

«**الإيمان بضع وسبعون شعبة**» أهل العلم في معنىٰ قوله: «بضع وسبعون شعبة» منهم من قال: المراد «**بضع وسبعون شعبة**» أي: المراد هذا العدد بعينه، أي أن الإيمان عدد شعبه بضع وسبعون، وفي بعض الروايات: «**بضع وستون**».

ومنهم من قال: إنّ العدد هنا لا مفهوم له، ما معنىٰ العدد لا مفهوم له؟ أي: أن النبي ﷺ قال: «**بضع وسبعون**» أراد الكثرة، يعني أن الإيمان له شعب كثيرة، وهذا يأتي في كلام العرب كثيرًا وخاصة السبعين والسبعمائة وما تضعّف منهما يستعمل للتكثير، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿إِن تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ سَبۡعِينَ مَرَّةٗ﴾ [التوبة:٨٠] ليس المراد هنا العدد ذاته، وإنما المراد: إن تستغفر لهم مرات كثيرة.

فمن أهل العلم من يرىٰ أنَّ العدد له مفهوم وأن شعب الإيمان بضعٌ وسبعون شعبة علىٰ التحديد، ومنهم من يرىٰ أن العدد لا مفهوم له.

مَن مِن أهل العلم رأىٰ أن العدد لا مفهوم له بعضهم اجتهد في جمع شعب الإيمان وهؤلاء كثيرون،

منهم ابن حِبّان البُستيّ رَحِمَهُ اللَّهُ صاحب الصحيح، وله طريقة سلكها في جمع شعب الإيمان أخذت منه سنوات، وبعضنا يستكثر علىٰ نفسه جلسة أو جلستين في دراسة الإيمان، فأخذت منه سنوات، ماذا فعل؟ يقول -وهو ذكر ذلك في كتابه الصحيح-: لـ"ما قرأت هذا الحديث أخذتُ أتتبع السنن الواردة عن النبي ﷺ وأجمع فيها أمور الإيمان وخصاله فوجدتُ أنها كثيرة تزيد عن السبعين! -يعني الأشياء التي أمر الله بها، والتي نهىٰ عنها، والأمور التي أثنىٰ علىٰ أهلها وجدتها كثيرة- يقول: فرجعت وبدأت أقرأ المصحف، أقرأ القرآن آية آية واستخرج منه كل ما عدّه الله إيمانًا، -مثلا: قول الله تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡۚ﴾[البقرة: ١٤٣، أي: صلاتكم، الصلاة إيمان، قوله: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ ٢ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ ٣﴾[المؤمنون] إلىٰ آخر الآيات كل هذه خصال إيمان؛ لأن الله عدّها في صفات أهل الإيمان، وقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٣ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ﴾[الأنفال]، فهذه كلها إيمان؛ لأنها صفات إيمان، فأخذ هذا العالم يتتبَّع كل ما نص الله علىٰ أنه إيمان فجمعه- يقول:" فاجتمع عندي أقل من السَّبعين، فأخذتُ أتتبع أحاديث النبي عليه الصلاة والسلام حديثًا حديثًا، في السنن والمسانيد والجوامع، وأستخرج كل حديث نص النبي ﷺ فيه علىٰ أنه إيمان -مثل: «**لا إيمان لمن لا أمانة له**» ونحو ذلك من الأحاديث وهي كثيرة جدًّا- يقول: فاجتمع عندي أقل من السَّبعين فجمعت ما اجتمع عندي من القرآن وما اجتمع عندي من السنة، وحذفتُ المكرَّر فصار العدد بضع وسبعون"، هذه الطريقة سلكها هذا العالم، يقول: "وأودعتُ ذلك كلَّه في كتابي «وصف الإيمان وشعبه»، وهذا الكتاب مفقود ومن وقت ليس قليل، وبعض العلماء المتقدِّمين شيئًا ما هم ما وقفوا عليه، مثل: ابن حجر ذكر في «فتح الباري» أنه ما وقف عليه.

لكن أيضًا هناك علماء آخرون جمعوا في الشعب، مثل البيهقي في كتابه «الشعب»، ومن قبله شيخه الحُليمي في كتابه «المنهاج في شعب الإيمان»، ومن الكتب التي في هذا الباب ويناسِب أن تتداول كتاب مُختصَر لـ «شعب الإيمان للبيهقي» للقزويني رَحِمَهُ اللَّهُ، هذا مجلد لطيف فيه خلاصة لما في كتاب «شعب الإيمان» للبيهقي.

أنا أقصد بهذا: أن بهذه الطريقة يشتغل الإنسان بدراسة الإيمان ويعرِف الأحاديث، ثم لما يعرِفها يعمل بها ليزداد إيمانه ويَقوَىٰ يقينُه وتعظم صلته بالله تبارك وتعالىٰ.

ثم إنني أختم بالإشارة إلىٰ أن هذه ما هي إلا مقدِّمات ومداخل لدراسة الإيمان، وبيان شيءٍ من المنهجية التي ينبغي أن يكون عليها طالب العلم في دراسة الإيمان مع اعترافي التام بعجزي وقصوري وتقصيري.

أسال الله جل وعلا أن يعفو عني وعنكم، وأن يغفر لي ولكم، وأن يستعملني وإياكم في طاعته، وأن يهدينا جميعًا سواء السبيل، وأن يزيننا وإياكم بزينة الإيمان، وأن يجعلنا هداة مهتدين، وأن يجعل ما نقوله حجة لنا لا حجة علينا إنه تبارك وتعالىٰ سميع الدعاء وهو أهل الرجاء وهو حسبنا ونعم الوكيل، والله تعالىٰ أعلم، وصلىٰ الله وسلم علىٰ نبينا محمد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.